محمد عبد الحليم عبد الله

حلم آخر الليل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

قصص المجموعة

حلم آخر الليل

كل ما كنت أرجوه فى حياتى بعد أن بلغت الخامسة والخمسين ، أن أقضى بقية أيامى وأنا هادئ مرتاح ، لا يعكر الفكر صفوى ولا يحال بينى وبين لذات عادية . وهذا هو آخر أحلامى فى حياة كأنها ليل طويل .

لقد كنت جد طموح فى أيامى الخالية ، لكن المقادير عارضت طموحى وأقامت فى طريقى العراقيل ، فرفعت الراية البيضاء معلنا تسليمى ، وأقنعت نفسى بأنه لا بد من الرضا بالواقع لأن السنوات القادرة والأيام المثمرة من عمرى قد ولت ولن تعود ..

وجلست فى هدأة الليل أفحص مرافقى واحدا بعد واحد ، حتى اطمأننت إلى أن بين يدى من المال ما يصون كرامة الحى ويحفظ قيمة الإنسان : معاشى لا بأس به من وظيفتى فى الحكومة ، ودخل متوسط من بيتين لى فى القاهرة أحدهما فى حالة جيدة والآخر عمره أطول من عمرى ، فهو لن يهدم إلا بعد أن أموت ..

وبعد ذلك كله .. فإنه ليس لى وارث من صلبى .. وهذا هو حجر الزاوية فى قصة حياتى ، والشيء الذى يلقى ظله على تصرفاتى مع الناس وخصوصا زوجتى وأقربائى .

* * *

أصبحت ذات صباح فأعلنت لزوجتى بعد أن فرغنا من الفطور وقبل أن نقوم عن المائدة ، أننى عزمت على أمر .. خلاص .. ولعل أمارات الجد كانت بادية على وجهى لأنى رأيت مدى ذلك على ملامح زوجتى

الجميلة التى تكمن أنوثتها كلها ــ وبكل إمكانياتها ــ فى صوتها وحده .
قالت تستفسر عن ذلك الأمر :

ــ إيه .. خير ..

قلت :

ــ كل متحرك على الأرض يسعى إلى غاية ..

ثم سكت ونظرت إلى خشب الخوان ويدى تعبث بإحدى الملاعق ، وألقيت بسمعى هنيهة إلى واعظ الصباح فى الراديو وهو يجهد نفسه مؤكدا لنا حقارة الدنيا ، ثم ألقيت بالملعقة فى حركة تنم عن إصرارى .. ونظرت إلى زوجتى فرأيتها لا تزال مرهفة سمعها وعيناها مفتوحتان لا تطرفان ، فأكملت :

ــ أنت معى يا سيدتى فى أن كل متحرك على الأرض يسعى إلى غاية .. أى قطار .. أو أى إنسان .. وحتى أى حيوان ..

فزمت شفتيها قبل أن تدعهما تنفرجان عن بسمة مستريبة ، على حين تابعت حديثى قائلا :

ــ إلّا أنا .. أنا يا سيدتى .. فحركتى طوال هذه السنوات لم تكن إلى غاية . « لا خلف ولا تلف » وإنما ينطبق علينا المثل « رب ساع لقاعد » وبعد سنوات يعلم عددها الله سيختلف الورثة على كل شىء .. إلا على لعنتى فى التراب ..

قالت زوجتى :

ــ وماذا تقصد ؟

فأجبت فى حزم :

ــ أقصد أننى سأستقيل من خدمة الحكومة وأسوى معاشى ،

وأجلس لأمسح عن وجهى العرق حتى تدركنى المنيـة .. لا داعى للتعب .. لا داعى له مطلقا ، فإن حركتى كانت بلا غاية .

ثم قمت محنقا كأنما دب بينى وبينها خلاف ، حتى دخلت إلى حجرة نومى فأكملت لبس ثيابى وعلقت عصاى فى ذراعى ، وألقيت على زوجتى تحية مختصرة وأنا فى طريقى إلى الخارج .

وكانت فى مكانها إلى المائدة كأنها لم تقو على النهوض . ثم صفقت الباب خلفى وهبطت الدرج ، ولم تخف عنى حرارة أفكارى إلا بعد أن صافح وجهى هواء الشارع .

* * *

ومنذ ذلك الحين أحسست كأن شيئا ما يعتمل فى نفس زوجتى ، وكأنما قامت بينى وبينها خصومة . كانت خصومة باردة أسلحتها معنوية صرف ، وذلك شىء لا يدركـه إلا الأزواج وحدهـم بعـد التجربـة الطويلة . فيستطيع الزوج أن يشم جو البيت بعد أن يعبر عتبته ، فيعرف أن خلافا ثار أو أنه سوف يثور .. أو يحس كأن راية بيضاء غير مرئية ترفرف فى نواحى السكن ، وقد يحس العكس فيشم رائحة الخطر كما يشم البحار رائحة العاصفة .

إننا لم نعقب نسلا ولا يعلم إلا الله لماذا لم نعقب نسلا .. وتضارب الأطباء فى تشخيص الحالة .. وكنت أصدق من كان رأيـه فى صف رجولتى ، وكانت تصدق من كان رأيه فى صف أنوثتها . وتشعب بنا الحديث مرة حول النسل ، حتى زل لسانى فقصصت عليها قصة زوجين عانيا نفس مشكلتنا عشر سنوات ثم افترقا .. ثم تزوج الرجل من غيرها وتزوجت هى من غيره فحدث شىء عجيب تدركه أنت الآن ، وهو أن

كلا منهما قد أنجب ..

وثارت الزوبعة فى بيتى بعد أن أتممت هذه القصة ، وكانت ماطرة ذات صراخ ودموع كلفتنى جهدا كبيرا حتى استطعت أن أعيد كل شىء إلى ما كان عليه .

لكن الأمور عادت فتعقدت مرة أخرى .. تعقدت فى نفسى بشكل أظنه لا يقبل الحل . وكان ذلك فى الليلة التى سهرتها أفحص مرافقى حتى اطمأننت إلى دخلى ، والتى أصبح صباحها فأعلنت قرارى لزوجتى قبل أن نقوم عن الطعام .

وتعقدت الأمور لأننى كنت جالسا على أحد المشارب وأمامى « شوب » من البيرة ، وشرد خاطرى فبدأت أرقب المارين فإذا بكل سائر يحث خطاه إلى غاية مقصودة ، حتى المتسكعين والمتسكعات أصبح بطؤهم غاية .. وذكرنى الشارع الممتد أمامى بحياتنا وغاياتنا ، فأخذت أفحص أمرى فلم أجد لى غاية .. كنت أكدح من أجل ناس لا يذكرون بيتى وأنا حى ، فكيف يذكرون قبرى وأنا ميت ؟ ولا يزورونني وأنا سليم فكيف يعودوننى وأنا مريض ؟.. وأحسست حرارة الشوق إلى النسل حتى هممت أن أقبل كل طفل يمر بى . ثم استعدت حلقات هذه المشكلة بينى وبين زوجتى .. ثم اتخذت قرارا فحواه أنه لا داعى للتعب .. نعم لا داعى له ..

وأعلنت هذا القرار قبل أن نقوم عن مائدة الفطور ، فكأننى أعلنت حربا قبل أن أعلن التعبئة أو أبنى المخابئ .

وكان فى زوجتى بقية شباب تنبئ عن ماض عريق . وعلى الرغم من أنها لا تملك اليوم إلا هذه « البقية » فقد أفهمتنى بتصرفات صامتة أن

« البقية » أحلى بكثير من رأس مال جمال كامل تتحلى به بعض الفتيات .

وأنت تعلم أن القاعدة المقررة فى الزواج أن تكون المرأة أصغر من الرجل .. يتزوجان ثم يسيران معا فى طريق العشرة ، ويلعب الحظ دوره فيصيب المرأة ما يجعلها تفقد حيويتها قبل زوجها ، أو يصيب الرجل ما يجعله يفقد حيويته قبل زوجته . وكثيرا ما يقع الأخير .. وقد كنت أنا من هذا الكثير .

وكان برنامجى اليومى بعد اعتزالى للخدمة هو أن أخرج فى الضحى متأبطا صحف الصباح ومجلة أو مجلتين بينهما كتاب ، وآخذ سمتى إلى المشرب الذى تعودت أن أتردد عليه فأقرأ أو أراقب الطريق . حتى إذا حان وقت الغداء عدت فتناولت طعامى ثم أويت مباشرة إلى الفراش ، حتى إذا دخل الليل خرجت مرة أخرى إلى مقهى غير مقهى الصباح ، فألتقى ببعض أصدقاء أقطع معهم شطرا من الليل فى السمر أو لعب النرد ، فإذا ما سئمت عدت أدراجى إلى البيت لأنام .

قلما تتخلف هذه الحاجات إلا إذا تخللها طارئ كالذهاب إلى السينما أو التعزية فى فقيد أو شهود إحدى حفلات الزواج ، ولا شىء بعد هذا .

وإذا عدت إلى البيت بعد انقضاء الهزيع الأول أضعت بقية ليلى فى مخدعى على الوجه الذى أشتهيه .

غير أن الجزء الأخير من برنامجى تطرق إليه الخلل بشكل مفزع .

قلما كنت أجدها نائمة عند عودتى ، بل كنت أرى فيها امرأة تنتظر عودة الغائب .. كل شىء فى وجهها ينادى معلنا أنه ليس لنا من لذة الدنيا إلا طيب العشرة .. « لا خلــف ولا تلــف » ولا صراخ صغير ولا مطالب تعكر علينا هدوء الليل .. وكان طبيعيا أن أستجيب لها ،

معاندا إن ظننت بها الظنون ، أو عاطفا إن اعتبرتها امرأة تحاول أن تحتفظ برجل لا يربطه بها إلا هذه العلاقة .

لكننى شعرت على مر الزمن بشيء يكاد يكون سوءنية فزحزحتها إلى منطقة أخرى من قلبى .. إلى حيث يقيم الورثة المتربصون الذين لم يتفقوا على شيء إلا على لعنتى فى التراب ..

واتخذت المسألة وضعا عكسيا فى الليالى التالية بعد عودتى إلى البيت ، وطال علينا المدى ونحن متهاجران حتى ناقشنا الموضوع ذات ليلة فثارت العاصفة مرة أخرى ، وكانت ذات صراخ ودموع كلفتنى كثيرا حتى استطعت أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه ..

وهكذا مشت سفينتنا تتخبط ، لا تسوقها ريح رخاء ، فإما ركود وإما عواصف . لكن الذى عزانى عن بلائى أننى كنت قليل المكث فى البيت ، فما كنت أقيم فيه إلا نائما ، ثم انتبهت فجأة على حادث غير متوقع ..

كانت صحتها تسوء يوما بعد يوم ، والطعام لا يستقر فى جوفها إلا قليلا حتى بدت شاحبة هزيلة غائرة العينين ، وعزوت هذا أول الأمر إلى طول تفكيرها فى سوء معاملتى لها بالنسبة لماض طويل جميل ، لكنها قالت لى وعلى شفتيها ابتسامة غامضة :

— يمكن .

— يمكن إيه ؟

— يمكن يكون ده بشاير الحمل .

فتنهدت فى ارتياح وقمت فقبلتها . ثم تنهدت فى غير ارتياح كأنما أنفى على صدرى حمل ثقيل . ولم أتريث حتى تناوشنى الأفكار وتنهشنى

الوساوس ، فأكملت لبس ثيابى وعلقت عصاى فى ذراعى وأخذت طريقى إلى المشرب حيث جلست أراقب الطريق وأمامى « شوب » من البيرة .

* * *

فى حياتنا مناطق يجب أن تبقى فى ظلام . والويل كل الويل لمن يسلط عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعا من الخارج يضيئها على الرغم منه ..

وقد ألقت المقادير شعاعا على حياة زوجتى لكنه ضئيل ، لم يجعلها فى نور ولم يتركها فى ظلام .. وهناك حوادث عادية تصبح مؤلمة إذا تخلفت عن أوقاتها المعلومة ، كعودة الزوج فى غير أوقات العودة ، وكحمل زوجتى فى هذه الفترة .. فأصبح ماضيها المستقيم عاجزا كل العجز عن أن يقنعنى بسلامة الموقف .. ولو تقدم هذا الحادث عشر سنوات مع حاضر لها غير مستقيم ما ركبتنى هذه الأوهام .. فلماذا ؟.. انظر كيف تتلاعب بنا الحياة ..

غير أن هذا كله لم يقلل من شوقى إلى رؤية المولود حتى آن الأوان فنظرت إلى وجهه الصغير الذى لا يزال محتقنا من آثار الولادة ، وجعلت أفتش فيه عن شىء من الغريب أننى كنت أجده ثم أفقده ، ثم أجده ثم أفقده على التوالى . كانت ملامحى تبدو فيه وتغيب كما تفر من بين الأنامل حبات من الزئبق .

ثم اطمأنت بى الحياة بعد ذلك شيئا ما لأننى ألفت أن أراه فى فراشى وأصبحت فترات الشك قصيرة المدى ، خصوصا بعد أن صارت أمه تحرص على إسعادى وراحتى ، وبعد أن ربطت الألفة بينى وبين الصغير

برباط تحسن شده يد الإنسانية لأنها تحافظ على نفسها بنفسها .

وبدأ يناغيني ويناغيها ، وبدأت هي تلفت نظرى إلى ملامحى فى قسمات وجهه : « انظر .. نفس الذقن المدبب .. يا حلاوة .. وكمان والنبى شوف العينين .. عينيك تمام .. »

وتنكب عليه فتوسعه ضما وتقبيلا . أما إحساسى أنا شخصيا فقد كان على اضطرابه كالصورة التى تلتقطها يد مرتعشة .

كان حنوى عليه ممزوجا بعطف وشفقة كالتى نحسها نحو الضعيف أو الغريب ، لكنه على الرغم من كل شيء ملأ علينا فراغ بيتنا ، بصحته وسقمه ومناغاته وصمته وخوفنا عليه من تغير الفصول . ثم إنه أنسانى الورثة إلى حد بعيد فصرت أتردد على المشرب والمقهى بانتظام ورتابة يشبهان عمل الآلات .

كانت تحبه كثيرا .. كأنما أحبته بكل قلوب الأمهات .

أحبته ابنا .. وحاميا .. وكاسبا ، لأنه سيرث مال أبيه . أحبت فيه هذا جميعه فكانت تنسى نفسها وهى تناغيه حتى تنقلب وكأنها عذراء شاعرة تناجى حبيبها تحت ضوء القمر .

ودخلت عليها مخدعها ذات صباح فرأيتها تقبله وتحتضنه وتناغيه قائلة له : « آه .. يا جميل .. يا شبه حبيبى » .. وهى تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال فى حركة ساكرة .

رجعت بظهرى خارجا من الغرفة دون أن تشعر بى ، كأن هذه الكلمات قد لطمتنى على خدى . وارتديت ملابسى وخرجت وظل أثر ذاك الكلام مرافقا لى طول النهار حتى عدت فى المساء فسألت عن الوليد النائم ، ودخلت عليه وحدى لأفحص ملامحه .. مسكين !..

وطبيعى أننى لم أصل إلى نتيجة . وتمنيت أن أملك قلبى لأصب له فيه الحب على الرغم من أى شىء .. لأرتاح ..

وثارت الكلمة فى نفسى عدة مرات ونحن فى ظلام المخدع أنا وهى ، ففعلت فى جسمى ما يفعله الماء وإن فعلت فى القلب أشد من حريق النار . وهممت أن أشرح لها وساوسى وأسألها عن ذلك الحبيب فأيقنت أنها ستجيب مؤكدة أنها تعنينى ، ثم .. ثم تثور العاصفة . فآثرت أن أغمد أحشائى على السكين .. وأسكت ..

وبلغ الطفل عامين وأجاد كلمة «بابا» وكان يقولها مخلصا متأنقا جادا. وكنت أتقبلها منه بشك كثير .. كان خصما بريئا، ضعيفا، غافلا، لا يشعر أن بينى وبينه ظل خصومة، وكثيرا ما حز هذا فى نفسى. لكننى كنت أعالج ألمى فى صمت عميق راجيا أن يبرأ قبل أن يحس به أحد .

وكثيرا ما كان يقاسمنى الشيكولاتة التى تقدم إليه . يقضم منها قضمة ثم يدسها فى فمى فآخذ منها بمقدم أسنانى وأنا أفحص وجهه الباسم ، وأرثى للإنسانية ذات المشاكل ، ولعالمنا المعقد المثقل بالقوانين المرهق بالمسئوليات .

ثم أصبح بارعا — دون أن يشعر — فى استنباط ودى كلما أوشك أن يغيض . وكنت أقبله فى ساعات الطمأنينة قبلات عميقة طويلة ممدودة كأنها كفارة عن هواجس النفس ، حتى بلغ أربعة أعوام من العمر .. فاستوت ملامحه بريئة جميلة تحفز الشفاه على أن تلثمها . ويئس الورثة فانصرفوا إلى شئونهم جادين فلم يعودوا يرقبون شبابيك بيوتى وهم مارون متسائلين فى ضمائرهم عن اليوم الموعود ..

* * *

وفى إحدى ليالى مايو استيقظ من نومه يطلب ماء .. وصرخت أمه وهى تقدم إليه الكوب لأنها أحست حرارة جسمه . لكننى هونت عليها الأمر ، فكل الأطفال يمرضون .. وكلهم يبرءون .. لا تجزعى يا سيدتى ..

لكن الطبيب أشار بنقله إلى أحد المستشفيات لأن الحمى تحتاج إلى تمريض دقيق . وامتثلنا .. وانتقلت أمه معه وكانت فى ذلك المساء شعثاء غبراء لم يمسس شعرها ماء ولا مشط حتى بدا جافا كأنه خيوط الليف ، وحتى بدت هى كأنها أحوج منه إلى طبيب .

وأقمت فى البيت وحدى ..

كنت أقضى معهما بياض النهار وجزءا من الليل ثم أعود . وأتاحت لى هذه الحادثة أن أراقب الفراشين الخاليين كل ليلة فى حجرة الأم وأدمن إليهما النظر كأننى أفحص شيئا . ويطول بى الأمر حتى أفيق على دموعى .. إننى حائر ..

* * *

أصدق الأحكام أو أكثرها اعتدالا هى التى نصدرها على خصومنا وهم بعيدون عنا ، ومن أجل هذا كان الموت ملغى الخصومات ، إلا عند كل خسيس .

وأحببت الصغير وتمنيت لو فديته بكل شىء .. ليأخذ الورثة البيتين وليبقه لنا الله .. وأنا مستعد أن أكدح من جديد من أجله حتى آخر العمر .. وأن أتنازل عن ملذاتى جميعا لأوفر ما يكفل له السعادة .

وقضيت ليلتى فى فراش الأم فى الحجرة الخالية ، وتركت النور مشعلا لأنظر إلى فراشه كلما تيقظت .. لكن الأحلام الكريهة تزاحمت علىّ حتى

إذا رأيت وجه الصباح تنفست كأنى نجوت من الغرق . وقدمت لى الخادمة فنجانا من القهوة لم يصحبه طعام ولا شراب آخر قبل أن ألبس ثيابى وأعلق العصا فى ذراعى آخذا طريقى إلى المستشفى ..

وقضيت هناك بياض اليوم وجزءا من سواد الليل .. كانت هناك معركة .. الحالة متحرجة جدا . كان فى حالة طيبة ساعة العصر ، فلما زحف الظلام زحفت عليه المخاطر . غيبوبة ونبض ضئيل كدقات الساعة قبل أن يفرغ الزمبلك . وكنا نعجب كيف أن الناس لا يحسون فداحة أمرنا خصوصا الأطباء والأمهات اللاتى يزغردن وهن خارجات بأبنائهن .

أما هى فقد كانت بعيدة عنا .. كانت مشغولة بشعرها وثوبها وجلدها تمزق منه ما استطاعت . وكان دعاؤها قليلا كأنها يئست من السماء . أما أنا فقد كنت أتملى الحياة الذابلة والملامح المدبرة التى تلم أذيالها قبل أن تفر من على وجهه .. وجه ابنى ..

أستطيع أن أقول : ابنى .. لأننى رأيت قسماتى واضحة فيه وهو يموت .. قد يكون ذلك خيالا ولكننى لن أستطيع أن أفر من آثاره . ولثمت خديه الغائرين اللذين كأنما ضغطا بين سبابة وإبهام فتخلفت فيهما حفرتان من أثر الأصابع . ثم سال الدمع على وجهى .

أنا اليوم أستنجد بالشك القديم لأصنع منه ترياقا لجراحى ، ولكننى دفنت الشك معه فى لحده . وأنا اليوم لا أعبأ بالورثة .. ولا أفكر فى غاية السعى على الأرض كما كنت أفكر فى الحياة كلها .. أصبحت لا تستحق .. وحتى التفكير نفسه أصبحت لا أركن إليه فعمدت إلى الفرار منه . لذلك غيرت برنامجى اليوم فهجرت المشرب والمقهى

والأصدقاء ، فلا سمر ولا نقاش ولا لعب . لا أريد أن أفكر .. ولا أن أذكر أخطائى ..

نعم أخطائى .. لأن أخطاءنا هى أكثر الحقائق فاعلية فى حياتنا . أما الصواب فإننا ننعم بثمراته فتلهينا ثمراته عنه .

الراية البيضاء

كانت منهمكة فى قراءة قصة بوليسية وهى متهالكة على أحد المقاعد ، جامعة فوق ساقيها أذيال روب حريرى هادئ اللون فى لون النبيذ .

ولم يقطع عليها قراءتها شيء بتاتا فى ذلك الضحى ، حتى ابنها الصغير ذو الستة شهور كان نائما ، وطال استغراقه فى النوم هذا الصباح كأنما ليتيح لها فرصة .

وكانت تكف عن القراءة بين حين وحين لتتأمل ما قرأت بمعظم شعورها ، تاركة بقاياه عالقة بلوحة زيتية معلقة على الحائط تمثل صيادا يحمل شبكة .

وما لبثت أن وضعت الكتاب على منضدة قريبة من يدها وفتحت عينيها فى دهشة ، وشهقت وحدها فى تعجب من النهاية التى صب فيها مجرى الحوادث ، ثم ضحكت ثم سرحت تتساءل :

ـــ ولماذا يسلم نفسه ؟! هذا غريب .

كان رجال الشرطة يضيقون الخناق على رجل تدل القرائن على أنه القاتل ، خصوصا لأن مصلحة تعود عليه من هذه الجريمة لأنه سيرث . وفجأة يتقدم إلى رجال الشرطة شاب فى مقتبل العمر تبدو عليه هيئة الصناع فيعترف بأنه القاتل . وقد قتل ابن المركيز ووارثه الوحيد انتقاما للشرف . لأن ابن المركيز غرر بأخته حين لقيها يوما عند مدخل الغابة وسلبها عرضها ..

ثم توقفت أفكارها .. وأخذت نظراتها تجول فى قطع الأثاث من حولها

حتى وقعت عيناها على الصورة الزيتية المعلقة على الحائط .. صورة الصياد والشبكة ، فذكرت شيئا .

ذكرت أنها كانت راجعة من الخارج عصر يوم من الأيام وخلفها خادمتها تحمل وليدها الصغير ، وكانت هذه الزوجة فى زينة من شبابها وثيابها ، فإذا بوجه مستدير أبيض لشاب طويل لامع الشعر يلتقى بها فى مرور عابر يلقى إليها بابتسامة ثم يمضى . لكنها ابتسامة غريبة قوية جريئة كأنها مبنية على أساس ، كأنها ليست الأولى ، كأنها ولدت بعد تبادل الابتسامات عدة مرات ، وهذا ما لم يحدث طبعا .

وألقت الزوجة على خادمتها نظرة من فوق كتفها وهى سائرة لتعرف إن كانت لاحظت شيئا ، فوجدتها مائلة العنق نحو شىء تتأمله ..

وأخذها من بين التأملات والصور بكاء الطفل .. بكاء اليقظة من النوم . واهتز قلبها بعنف لذيذ لهذا البكاء الغريزى المتوارث الذى يطلب الأطفال به أمهاتهم فى أول أعمارهم ويطلبون به الغذاء . ووضعته فى حجرها وأعطته ثديها ونظرت إلى بياض الاثنين .

ثم حانت منها التفاتة إلى الشباك المفتوح فى حجرتها ، ومن خلاله رأت سطح البيت المقابل والغرفة القائمة فى إحدى الزوايا والشباك المفتوح فيها كذلك . ومن خلال الشباك الثانى رأت وجها .. كان هو الوجه المستدير الأبيض الذى ألقى إليها بابتسامة عصر يوم .

وأحست أنه يتأملها بإصرار وعلى مهل وفى رزانة ، وكأنما كان على شفتيه عبر الحارة تلك البسمة التى كأنها بنيت على أساس شىء خطير جدا .. لا يشك أحد حين يراه يفعل هكذا أن بينه وبينها علاقة .

« يا له من رقيع .. أعوذ بالله !! »

هكذا قالت فى نفسها ، ثم قامت وأسدلت ستارا .

* * *

كان ذلك أول عهدها بهذا الوجه المستدير .. المقابل لها .

لا شيء يوصف به إلا أنه « رقيع » ، أما الاستدارة والبياض والابتسامة الثابتة على الشفتين كأنها بنيت على أساس ، فذلك لا يهم .

على أن عهدها بالحجرة المقابلة أنها كانت خالية ، غير صالحة للسكنى ، مهملة نصف خراب .. لكن الزوجة حين غابت عن القاهرة لمدة شهر وعادت لاحظت أن يد العمران قد امتدت إليها وجددتها ، لأن الحرب كانت تهدم فى مكان وتبنى فى مكان .

ثم لمع فيها النور ذات مساء وانفتح عن النافذة شيش متهالك قديم ، وأطلّ منه وجه امرأة يبدو عليها أنها زوجة فقيرة إن لم تكن خادما . لكن السيدة وجدت نفسها بعد ذلك مشغولة بأن تربط بين صاحب الوجه المستدير المترف وبين وجه هذه المرأة .. ولم تصل إلى نتيجة فنسيت الموضوع .

ثم حدث ما حدث من قبل ..

انهمكت ذات يوم فى القراءة وهى متهالكة على أحد المقاعد ، والطفل نائم وصورة الصياد أمام عينيها ، وحول ساقيها أذيال روب هادئ اللون فى لون النبيذ . ووقعت عيناها على الصورة فتذكرت أشياء متتابعة :

قتل ابن المركيز . القبض على شاب . شاب آخر يسلم نفسه . الوجه المستدير . الغرفة المهملة ..

فقالت فى نفسها : ما هذا ؟ لماذا يسلم الناس أنفسهم ؟

ولما كنا دائما نوازن بين شئوننا وشئون غيرنا خصوصا فى المتشابه منها ، فقد أخذت الزوجة توازن بين وجه ووجه ، وابتسامة وابتسامة ، وشعر

وشعر . تلك لرجل يرقد إلى جنبها كل ليلة وتلك لرجل لا تعرف عنه إلّا المظاهر .

وبكى الطفل مرة أو مرتين فى الفراش داخل الحجرة ، كأنه حلم أن الثدى خطف منه ، ثم نام ثانيا واستغرقت أمه فى الفكرة . ولم تدر كم من الوقت مر عليها ؟ وكل شيء من حولها هادئ كأنه يعاونها على ما كانت فيه .. حتى دق جرس الباب .

كانت الخادمة فى الخارج فقامت هي وفتحت الباب ، لكنها ردته ثانيا بحركة لا دخل للإرادة فيها ، وكل يد على مصراع . ولم تتكلم ولم يتكلم الواقف بل كان يبعث إليها بالابتسامة الثابتة المألوفة الواقفة على الشفتين كأنها مبنية على أساس . والوقت ضحى واليوم يوم عمل والرجال ليسوا فى البيوت ، فماذا يريد هذا الشاب ؟ وفجأة سمعته يقول : « عداد النور من فضلك » . ففطنت إلى أوراق تحت إبطه فأخلت له الطريق إلى حيث نظر بقوامه الفارع إلى الجهاز الأسود المثبت فى الركن . وألقى على وجهها المحمر وهو فى طريقه إلى الباب نظرة تقول كلاما .. وانحنى بالتحية ثم استقام فوجدت على شفتيه نفس الابتسامة .

* * *

قالت تعاتب نفسها بعد انصرافه :

ـــ أليس من الجائز أن تكون « لعبة » من نوع سخيف ومن فكر سخيف ؟ لماذا لم أسأله إثبات شخصيته ؟ لماذا ؟

ثم رجعت وناقشت هذه الفكرة :

وإذا طلبت منه تحقيق شخصيته فمعنى ذلك أننى أشك فيه .. ومعنى ذلك أننى منتبهة إليه !.. ثم هزت كتفيها .

وعلق بصرها بالصياد والشبكة ، وزرقة الماء تحت قدميه .. والأفق الغامض .. البعيد .. المجهول .. والقصة البوليسية . وابن المركيـز . والقاتل الذى سلّم نفسه ..

حتى بكى الطفل !..

ولما جاء المساء وجدت نفسها تراقب شباكه وهى جالسة فى النور . كانت فى الحقيقة لا تحس شيئا ولا تريد شيئا . لكن جوارحنا كثيرا ما تؤدى حركات تنكرها عقولنا كما تنظر العينان إلى ما لا نرضاه فنغطيها بأكفنا !

ورأته يتخايل عند الشباك . يقرب ثم يغيب . ثم رأته يجر كرسيا ويجلس ليحس طراوة الليل ، فقامت من فورها وأسدلت ستارا !

ثم رجعت فجلست ، ثم قامت فأطفأت النور ، ثم عادت فجلست على السرير وظلت تراقب .

زوجها يرقد فى حجرة أخرى بعد مضى عام على زواجهما ، لأنه لا يطيق أن يسمع فى الليل صرخة طفل .

على أن ذلك خارج عن الموضوع .. وفى اللحظة التى انطفأ فيها نور حجرتها غاب الجالس جنب الشباك دقيقة ثم رجع .. وبدا نوره لعينيها أكثر سطوعا لأنها فى الظلام . ثم أطفأ مصباحه .

وهمت أن تستلقى فى الفراش لكن شيئا استوقف نظرها . رأت نور عود من الكبريت يلمع على مقربة من وجهه فظنت أنه يشعل سيجارة ، لكنها رأته يشعل شمعة ويضعها على منضدة تستطيع أن تراها ويجلس هو إلى جوار المنضدة .

عرفت أن النور قد انقطع فى الحى فقامت لتجرب مصباحها وتعد

عدتها لمفاجآت الطفل ، لكنها فوجئت بأن النور غير مقطوع .

ورأته ينظر نحو غرفتها قبل أن تطفئ نورها ثانيا ، والشمعة أمامه وهو مستغرق فى الضحك لأنه أقلقها . وحين أوت إلى فراشها تذكرت أحد جيرانها القدامى من التلاميذ ، كان يعكس أشعة الشمس على غرفتها بمرآة صغيرة .

ورقدت منصرفة عما يفعل ، لكنها عادت فجلست فى الفراش لترى ماذا يفعل .

ومن لهب الشمعة الموقدة رأته يشعل شمعة أخرى وعيناه تنظران نحوها فى الظلمة وعلى فمه ابتسامة . ثم نصب الثانية على المنضدة إلى جانب الأولى فرأت لهب شمعتين .

قالت تسأل نفسها :

ـــ وما مغزى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة الأولى وأدنى لهبها من وجهه كأنه يتأمله ، ثم نفخها فأطفأها ، ثم أمالها على المشتعلة فأشعلها منها ثم ثبتها فى مكانها من جديد .. ونظر نحو شباكها ..

كانت تقول فى نفسها :

ـــ وما معنى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة وأدنى لهبها من وجهه ثم أطفأها ، ثم أشعلها وثبتها فى مكانها كما فعل بأختها من قبل . ونظر نحو الشباك وهو يبتسم .

وكانت لا تزال تقول فى نفسها :

ـــ وما مغزى هذا ؟

وحين استغرقت فى النوم كانت تتراقص أمام بصرها فى الظلام مرآة فى

أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .

لكن ذلك حال يطول ولا بد من وضع حد له . لابد أن نحتاط فى يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلّا كنا مسئولين عما يحدث .

كانت تعرف هذا جيدا وكانت شديدة الإيمان به .

وترقبت المساء التالى لترى ماذا سيحدث . كانت النافذة مقفلة والحجرة ساكنة ولا شيء إلّا الظلام . وأحست كأنها ترقبه فعللت ذلك بأننا قد نرقب ما نكره . ولمع النور من وراء الشيش المتباعد الوحدات المتكسر بعض أجزائه ، ثم انفتحت المصاريع والوقت متأخر . وجلس إلى المنضدة فأكل وهو يتلفت كأنه شارد أو كأنه لم يتخلص من بقايا فكرة ، أو كأن الظلام المخيم على غرفة جارته لم يشجعه أن يفعل شيئا .

وخطر ببالها أنه لا يعرف إذا ما كانت يقظة أو نائمة، فقامت وأشعلت النور وذهبت إلى دورة المياه ثم عادت، ثم أطفأته وجلست فى الفراش.

وبعد مدة بدأ يشعل شمعة من شمعة لاويا عنقه نحو الشباك . وصممت على أن تدعو زوجها ليرى هذا ، فخرجت من مخدعها قاصدة إليه حتى نسيت أن تلبس فى رجلها شيئا ، وحين فتحت عليه بابه استيقظ هاتفا :

— سميرة !

— نعم . أنا . آسفة جدا . حسبتك تنادينى فقد سمعت دقة على الحائط الذى يفصل بين حجرتينا .

— بنت حلال تعالى ..

وانقضت الليلة بينهما على الوجه المألوف ، ومرت أيام كانت أشبه بليالى الهدنة مشحونة بالقلق والملل والتطلع .. حتى كان ضحى يوم من الأيام .

والطفل نائم ، والخادمة فى مستشفى الأنكلستوما ، والسيدة منهمكة فى القراءة متهالكة على المقعد وعلى ساقيها أذيال روب هادئ اللون ، وفى تجاهها صورة الصياد ...

ودق الجرس دقة عميقة فنملت أطرافها ، وألقت نظرة على الصياد والشبكة ، والبحر والأفق الغامض قبل أن تفتح الباب . وكان قد مضى شهر تماما ورجعت الأيام من جديد فمثل أمامها بوجهه المستدير وابتسامته الثابتة على شفتيه كأنها مبنية على أساس .. قديم .. قديم جدا !!

وكان فى باطنها أشياء كثيرة وهى تخلى له الطريق ليذهب إلى العداد . الجهاز الأسود القائم ليحصى عليهم خيوط النور . وجعل يدندن كما يفعل الصراف وهو يجمع الأرقام ، ثم قال لها :

— ياه .. ستين كيلو ، لازم بتسهروا كتير !!

فلم تردّ . وكانت تتلفت كأنها تبحث عن أحد ولكن الطمأنينة التى ظللت وجهه خففت قلقها . ثم طلب كوبا من الماء — إن كانت تسمح — فأشارت إلى الصنبور ثم قالت أخيرا له وهو خارج بصوت فيه رعشة الانفعال :

— تسمح ؟

— نعم !

— تسمح تقول لى .. ما معنى هذه الأعمال ؟

فأجاب فى تجاهل :

— إننى أؤدى وظيفتى يا سيدتى !

فنظرت وكأنها تبارزه واستطردت :

— يا شيخ ؟! وإشعال شمعة من شمعة وظيفة ؟!

فقال مداعبا :

ـــ ألست موظفا فى شركة النور ؟

ـــ ...

وظلّت تنظر إليه فى شرود وغضب وعلى الخدين حمرة كأنها تفاح ، حتى فارق البسطة وأخذ يهبط درجات السلم .

وصممت على أن تقول لزوجها بعد الغداء مباشرة .. لا بدّ من يد تمتد إلى الذين يزلون حتى ينهضوا من جديد .

واستغرقتهما مشكلة ديوانية وهما على الغداء كان الزوج يقصها عليها .. ثم أوى إلى غرفته بعد ذلك مباشرة ونامت هى كما نام ، وقامت وقت العصر بنفس هادئة نوعا ولكنها قررت أن تعمل شيئا آخر .

وفى صباح اليوم التالى كانت غرفة المائدة مكان غرفة نومها وغرفة نومها مكان غرفة المائدة . فبعدت بذلك عن شباكه . إنها تعرف تماما ما ينبغى أن تعمل .. لا بد أن نحتاط فى يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلّا كنا مسئولين عما يحدث !!

وفى ظلمة إحدى الليالى التالية بكى الطفل فأعطته ثديها وهو فى حضنها ، ورضع حتى نام فسحبته من فمه ثم قامت إلى دورة المياه . ومن هناك وجدت نفسها مدفوعة إلى غرفة المائدة وفتحت شباكها برفق وهدوء بيد مضطربة وقلب خافق .. تماما كأنها تسرق أو تفتح باب مخدع غريب على رجل نائم .

ووقع بصرها على الشباك ورأته إلى جواره . كان ساهرا يقرأ .. وكان يهز رأسه ويسكت ويشرد وينظر نحو بيتها كأنه يطلب منها أن تشاركه المعانى والأفكار .

وأحست جرّ شبشب على البلاط ! ووقع أقدام ثقيلة تنتقل فى الصالة ، وكان زوجها فى طريقه إلى دورة المياه هو الآخر . وحين وصل إلى غايته كانت هى تتسلل ببطء إلى حجرة نومها ، ولما دخلت مخدعها أحست أنها عملت أمرا غير عادى .

وسألت زوجها ذات يوم عن علامات الحب ، وكان ذلك بمناسبة . كانا يستعيدان ما فات والتاريخ القديم منذ عامين أيام كانا خطيبين . وكثير من الحوادث يفقد رونقه بسرعة ويستحيل إلى شىء قديم . ولما سألته وهى تبتسم عن علامات الحب ، أجابها وكأنه مشغول بجد الأمور : « لقد نسينا هذه التفاهات » .

وحدث تغيير فى المنزل مرة أخرى . تحولت حجرة المائدة إلى حجرة نوم وتحولت حجرة النوم إلى حجرة مائدة ، وظهر لعينيها شباكه من جديد كأنه منارة .

وبوغت حين رأى ما حدث ، وأحضر من فوره الشمعتين وجعل يشعل .. كان يخيل إليها أنه سيأكل اللهب حين يدنى الشمعة من فمه ليطفئها ، فتذكرت أن هناك ناسا يأكلون اللهب ويلبسون النار ويسكنون جهنم ، وهم مع ذلك يحسون بالنشوة !

واسترخت أهدابها فاستغرقت فى النوم ، وكانت تتخايل أمام بصرها فى الظلام مرآة فى أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .

ولقيها فى الطريق فسار إلى جوارها يبتسم فى صمت ، فقالت له :

ــ ماذا تريد منى ؟

ولم يكن شرودها غاضبا وإن كان على الخدين حمرة كأنها تفاح . فأجابها بلطافة :

— أنا أريد أن أسألك نفس السؤال .

فنظرت مستنكرة ما يقول ، فاستطرد بنفس اللطافة :

— إذن .. فليسأل كل منا صاحبه ماذا يريد صاحبه ؟

فلم تردّ . فهمس :

— سؤال محيّر !

فأطرقت نحو الأرض .

فهمس : والجواب عن السؤال أكثر تعقدا وتحييرا .

ثم سكت . وسمع كل منهما وقع الأقدام على الأرض ، والخادمة من ورائهما على بعد غير بعيد ، ثم قال :

— فى الدنيا مساكين لا يعرفون ما يريدون ، وإن عرفوا عجزوا عن أن يفعلوا شيئا .

فلم تردّ فاستطرد :

— على أننا سنلتقى قريبا ..

فنظرت بعينين مفتوحتين فيهما فزع وقلق مغلفين بحب لا يفصح . فهز رأسه وهو يحملق فيها ولم يتكلم . ثم قال بعد برهة :

— سنكشف عن العداد بعد يوم واحد .. وداعا ..

لكنها لم ترد عليه . وقبل عودتها إلى البيت اشترت للخادمة جلبابا ومنديلا وقدمت إليها وقت الغداء قطعة كبيرة من اللحم .

ولم يبق إلا يوم واحد ، وكانت تنتظر . لم تكن مصممة على أمر . وفى الليل الذى سيأتى بعده صبح ربما وقعت فيه حوادث كانت تحس كأن جيشا يزحف نحوها وهى وحيدة بلا سلاح ، وتمنت لو وجدت يدا تمتد إليها بالمعونة .

وكانت تعلم أنه لا بدّ أن نحتاط فى يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون . لكن .. خلق من أجلنا الضعف !! .

وخرج الرجل ، وذهبت الخادمة إلى مستشفى الأنكلستوما ، وجلست هى حيث تعودت أن تجلس فوقع بصرها على صورة الصياد والشبكة ، والبحر ، والأفق الغامض فتذكرت ما فات ..

ودق الجرس فنملت أطرافها . لكنها فتحت لترى على الباب وجهه المستدير وبسمته الثابتة على شفتيه . واتجه إلى العداد ثم عاد إليها وكانت تلهث لا تتكلم والباب موصد وصورة قاتل ابن المركيز الذى سلم نفسه دون أن يبحث عنه أحد ماثلة فى ذهنها .. ولما احتواها بين ذراعيه وبادلته القبل بعد برهة ، فهمت لماذا كان يشعل شمعة من شمعة !

وبعد أن ذهبت السكرة ورأت نفسها وحدها ، انفجرت تبكى لأنها رفعت الراية البيضاء فى ذلك الضحى بيد خالية من الإرادة .

ولم يعد يقلقها بعد ذلك إلّا سؤال كانت تلحّ على قلبها أن يجيبها عنه بصراحة . هذا السؤال هو : « هل تستطيع أن تتراجع لتصبح امرأة نصف شريفة ؟! » .

سقف من الزجاج

كانت عيادتى مزدحمة بالمرضى ، والوقت صيفا ، والدنيا حرا ، وميعاد الغداء قد فات ، وزوجتى فى البيت تكلمنى بالتليفون كل نصف ساعة لتسألنى : « هل ستتأخر كثيرا ؟.. إن الطعام على المائدة ، ونحن بالانتظار » .

وكنت مرهقا فى الواقع ، ووددت بينى وبين نفسى أن أحذف من عملى فى هذا اليوم شيئا هو استماعى بنفس مطمئنة إلى ثرثرة المرضى الخارجة عن الموضوع .. الخارجة عن كسل الكبد وحموضة المعدة وتمدد الطحال ، ولكننى لا أستطيع ، لأن استماعى إلى مرضاى بكرم وابتسام كان من أهم أسباب نجاحى .

والمريض «رجل يعترف».. شخص يريد أن يتخفف من أوهام تزعج نفسه كما يتخفف المذنب من آلام تقلق روحه ..

أما اليوم فقد كنت متعجلا جدا ، كنت أريد أن آكل وأنام كما يأكل الناس وينامون ، لكن حجرتى الانتظار فى عيادتى كانتا عامرتين برجال وسيدات .

وأطل علىّ الممرّض النوبى بوجهه المستطيل من فتحة الباب وقال : « إن آخر سيدة فى العيادة تريد أن تدخل يا دكتور » .

فأجبته وأنا أدير قرص التليفون لأتصل بالبيت :

ـــ من ؟

ـــ ست منيرة ..

ــ دعها تدخل .

واعتدلت استعدادا للإجابات ، وزجرت معدتى لتسكت عنى كما تنهر الأم ذات اللبن الشحيح طفلها الباكى بين ذراعيها وهى تعلم أنه جائع .

ودخلت ست منيرة ، فطالعنى من وجهها أول كل شىء كحل وضعته فى أجفانها بلطف . وجلست على كرسى مواجه فى رشاقة لا تتناسب مع عودها السمين .. فبادرتها وأنا أستجمع أفكارى ويدى تعبث بخنجر من العاج تفتح به الرسائل :

ــ خيرا يا هانم .. هل تشعرين بجديد ؟

ــ ألاحظ فى هذه الأيام أنى أصبحت كثيرة الأحلام .. وقد قرأت فى كتاب يصدر ضمن سلسلة شهرية أن من الأحلام ما له علاقة ببعض أعضائنا ..

فضحكت ، وأحسست أن شيئا من الخجل مسح على وجهها الأسمر فأحاله إلى حمرة الفخار ، وتركتها تخرج مروحة من حقيبة يدها ، واستدركت :

ــ لست أقصد أن أسخر من معلوماتك يا ست منيرة ، ولكن الذى يضحكنى هو حرصك الشديد على الانتفاع بهذه المعلومات ، و...

ــ الكابوس يلاحقنى طول الليل يا دكتور ، أشكال فظيعة أراها فأستيقظ وأنا ألهث . وربما قضيت بعض أيامى متشائمة من رؤيا مرت بى فى الليلة الماضية .. كل هذا من الكبد ..

وكان يجب أن أقول لها : نعم ، هذا صحيح « وإن كان غير مؤكد » ، إن الست منيرة مريضة بالكبد فعلا ، قلت لها هذا ثم استطردت وأنا أرمقها بعطف ولطف :

— على أننى أفضل أن يمضى المرء ليله نائما بأى شكل ، لأن النوم خير من الأرق . وهناك ناس يا سيدتى يجيئون فيقسمون لنا أنهم لم يغمضوا أعينهم طول الليل .

فقالت بتذلل وطريقة توحى أنها بدأت تفقد ثقتها فىّ :

— لكن يا دكتور .. أنا أتكلم عن الكبد يجعل كل شىء .. عالج لى كبدى ما دام هو الذى يسبب لى كل هذه المتاعب .

إننا نجد أنفسنا مضطرين فى بعض الظروف أن نلعب مع مرضانا بالورق ، لأن المريض « مستغيث » ، والطبيب « منقذ » ، والمستغيث لا يلتمس لمنقذه عذرا ، ولا يشك فى قدرته حتى ولو كان فطريا ، ولأن المريض متعلق بالنجاة التى تعميه عن كل ضعف فينا .. ولو كان فطريا ..

كنت أحاول أن ألعب بورقة جديدة ، فطرحت مسألة « الأعصاب » جانبا ، لأنها « موضة » بدأت تشيع ، وشيوع « الموضة » معناه انتهاؤها ، فقلت للست منيرة غير صادق :

— اسمعى يا سيدتى ، فى وسع أى طبيب أن يصرف اهتمامك عن كبدك المريض إلى شىء آخر ، كأن يقول لك مثلا إن المسألة مسألة أعصاب ..

ففتحت عينيها فى إعجاب حتى ظهر بياضهما مستديرا حول الحدقة السوداء ، وجرى إشراق خفيف على وجهها الأسمر الذى يحمل إشارات خمسين عاما ، ثم همست وهى تطفئ سيجارتها فى الطقطوقة :

— صحيح ؟.. إذن فأنا أعصابى سليمة .

— جدا .. كل السلامة .

فأجبتها :

— أنت مريضة ذكية ، ونحن نفرح دائما بالأذكياء من المرضى .

— لماذا ؟

— لماذا ؟.. إذا كان القاتل الذكى من سوء حظ المحقق ، فإن المريض الذكى من حسن حظ الطبيب ، هذا يضلل وهذا يهدى .

— ها . ها . ها .. هئ . هئ . هئ ..

وهكذا ضحكنا معا ..

وأخذت وطأة الامتحان الثقيلة تخف عن جو الحجرة ، وبدأت المريضة الملحة التى زارتنى ستين مرة بين كشف واستشارة تتفاءل بما سأفعل ، ولو أن حقيقة أمرها أنها تحمل فى كبدها كسلا عاديا جدا يمشى به كثير من الذين يأكلون السمن السايح . لكن ظروفا يجهلها الأطباء والمرضى معا تضخّم كثيرا من التوافه حتى تزعج الطرفين .

وكان لا بد أن أقول لها شيئا ، فقلت :

— هناك طريقة للعلاج تعطى نتائج سريعة ، لكنها .. « ومططت شفتى » .. مضمونة . هل عندك فكرة عن شرب « المثلج » ؟ إنه لا يطفئ الظمأ ، إننا نعالج .. نعالج .. كلمة العلاج نفسها تدل على أن العمل بطىء ، ثم إننا نخاف النكسة .. النكسة العضوية يا سيدتى قد تحدث نكسة نفسية عنيفة ، مرضانا الذين يبرأون تماما ثم يعودون فيمرضون تماما ، ييأسون . ولذلك فأنا حريص على أن أختار الطريق الطبيعى حتى أصل بمريضى إلى الأرض اليابسة ..

ودق جرس التليفون ، وخيل إلى أنه غضبان ، فرددت على زوجتى قائلا :

— بالهناء والشفا ، أعمل إيه .. زبون والله ، والله العظيم .

وأقفلت السكة وعدت أستأنف عملى مع السيدة التى لا تشبع من القلق ، قالت :

ـــ أنا أحس وأنا فى عيادتك أن أعراض المرض تزول تماما ..

فأجبتها وأنا أضحك :

ـــ فوقنا شقة خالية ..

فأومأت بعينها المكحولة وهزت رأسها لتقول إن هناك فرقا بين الشقتين ، فقلت لها :

ـــ شكرا ، وأنا تحت أمرك ، من واجبنا أن نجيب عن كل ما تسألون ، وسرنى أن المحادثة بدأت تنهى نفسها ، وأخذت أقفل أدراج المكتب وتحركت هى فى مقعدها .. فدق جرس التليفون .

قلت لمحدثى وأنا واقف :

ـــ الآن ؟ مستحيل ، وأنا أيضا فى غاية التعب . اعذرنى .. وباسم الإنسانية أستمهلك حتى آكل .. أنا آلة فرغ منها الزيت .. اتفقنا إذن ، يحرسك الله .

وخرجت وهى من ورائى ، فرأيت العيادة ساكتة ، وضجيج الترام يأتى إلى آذاننا من بعد ونحن نجتاز الصالة ، والممرض النوبى الطويل نائم وهو جالس ، وهناك سيجارة نفحه بها أحد الزباين كانت تحترق وحدها على منضدة .

ثم أقفل من ورائنا الباب ..

فتحت لى الباب خادم صغيرة تلبس جلبابا من القطن كان أكبر من جسمها بكثير .

ومررت فى مدخل يدل على الإهمال ، والصالة خالية ليس فيها فرش ،

فخمنت أنه مسكن لبعض طلبة المدارس .

ثم قادتني البنية إلى الغرفة التى ينام فيها المريض . لم يكن بابها مستقلا بل كان يفتح فى غرفة أخرى لم ألاحظ حيث اجتزتها شيئا فيها غير مكتب عادى وعدة كراسٍ. أما فراش المريض فكان أهم ما فيه أنه يدل على الوحدة ..

برز معنى الوحدة لخاطرى حين رأيته متقدما فى السن ، شاب شعره بنظام كأنه صبغ بالأبيض ، ولم أشم فى المكان رائحة « شريكة » ، ولا أنفاس أطفال ، فبدا البيت كأنه وجه يحمل عينا واحدة ، لتكن جميلة ناعسة لكنها لا تسحر .

كان يبدو أنه يعانى أزمة عامة لا يرجع سببها إلى شيء واحد ، فشاع فيه الاضطراب جسما وروحا ، وكان أول ما صارحنى به حين انحنيت أكشف عليه أن قال إنه خائف ، خائف من الموت .. فابتسمت وأنا أزحزح الجلباب لأكشف على بطنه وأجبته :

ــ لا تخف يا صديقى ، فإن الموت ليس من السهولة كما يظن الناس .

فسأل وعيناه زائغتان :

ــ كيف يا سيدى ؟

فقلت وأنا أعد نبضاته :

ــ إن تسعة أشهر فى العادة كافية لأن تخلق طفلا يصلح لأن يعيش ثمانين عاما .. وإن عشرين شهرا قد تكون غير كافية بالنسبة لمريض تنشب فى جسمه معركة الحياة والموت .. الموت ليس سهلا .. دعنا من هذا ، فليس فى موضوعنا .

ووصفت له دواء ، كان بعضه الطمأنينة .. وانصرفت .

ولاحظت وأنا خارج شيئا لم ألاحظه أثناء دخولى . كان هناك كلب مشدود برباط من الجلد إلى مصراع الباب الثابت ، وكان فى سبات عميق .. راقدا على الأرض ورأسه بين رجليه .

* * *

وفى المساء ، بعد يومين دق جرس التليفون ، والوقت متأخر نوعا وأنا على وشك أن أفرغ من المرضى ، ودلنى المتكلم على شخصيته فعرفت أنه أحد جيران المريض الذى عدته فى البيت ، وألحّ على فى أن أسرع لأن المسألة تبدو أنها خطيرة ..

وكنت على بيّنة من الأمر فلم يزعجنى هذا الحديث ، اللهم إلّا إذا كان هناك ما لم يدخل فى حسابى . كانت الحالة تدلّ على أنه « يتحلل » ، والتحلّل محتاج حتما إلى زمن . وأول علامات التحلل أن كل عضو من أعضائه الرئيسية بدأ يكلّ ، وبمرور الزمن يذهب التناسق كأنما تتخاصم الأعضاء فيدخل المريض فى « الممر » المؤدى إلى الحالة الثانية .. عكس الحياة ..

كان هناك جديد فى الموضوع حقيقة ليلة زرته للمرة الثانية ، لأن الكليتين كانتا قد أعلنتا العصيان فقلّ إفرازهما عن الطبيعى .

والشقة فى الليل شديدة الكآبة ، لم يكن فيها نور .. لم يكن فيها أحد يؤنس مرضه لا زوجة ولا أولاد ، فبدت الوحشة متراكبة كأنها ظلام على سطح البحر . وإذا كنا نفزع من الموت مرة فإننا نفزع منه ألفا إذا شعرنا أننا نموت فى الظلام .

قلت له : لا بد من نقلك إلى مستشفى .

فأجاب فى شبه هلع :

ـــ اعمل معروف ، أنقذنى فقط .

ونحن كقواد المعارك نرى غروب الأعمار بكثرة ، لكننا فى بعض الأحيان نرثى لبعض الموتى .

ولم أفارق الرجل الشيخ ولبثت حتى جاءت عربة لتنقله ، وخرجت آخر الخارجين ، وألقيت على المكان نظرة طويلة فرأيت حجرات خالية وأرضا متربة والخادمة الصبية فى ثوبها القطنى الواسع على جسمها وهى تحملق فى صمت ، وأخيرا .. أخيرا .. الكلب .

لم يبق بعد خروجنا فى المكان سواه .. والصبية ، وطبعا حين أغلق الباب خيّم السكون ، ونام الكلب على الأرض فى رباطه الجلدى ، ونامت الصبية فى المطبخ على « شلتتها » القديمة .

* * *

وكنت أقول لأحد المرضى المثقفين فى هذا المساء :

ـــ إن الطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا يا صديقى ، فإذا أعطتنا شيئا ولم نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءا .

وضحكت ثم أمسكت القلم بيدى اليسرى لأبرهن له أننى عاجز عن الكتابة بها .. ثم عدنا فضحكنا .

وانصرف المريض ، وأطلّ علىّ الممرض من فتحة الباب بوجهه النوبى المستطيل وقال بلهجة فيها ملل : « ست منيرة يا دكتور .. » .

فهمست دون وعى :

ـــ ست منيرة .. دعها تدخل ..

فدخلت ست منيرة .

كانت شاحبة فى هذه الليلة حقا ، مجهدة حقا ، كأنها مشت شوطا طويلا .

ونظرت إليها ولم أتكلم ، ومرت برهة انتظر كل منا فيها كلام صاحبه حتى قلت :

— خيرا ؟ ..

فقالت وهى مطرقة :

— خيرا ، فقط كنت أشكو من كثرة الأحلام فأصبحت أشكو من قلة النوم .

فضحكت مداعبا لأخفف الحالة :

— يعنى لا نوم ولا أحلام ..

— بالضبط .

وكانت الكلمات التى قلتها للمريض السابق لا تزال عالقة بذهنى ، حاضرة على طرف لسانى كأنها بقية مشروب ، فقلت لها :

— اسمعى يا سيدتى .

— نعم .

— كم ولدا عندك ؟

— لماذا ؟

— لماذا ؟ .. لأنه من الطبيعى أن يكون للناس أولاد .

فاحمرّ وجهها الشاحب لأن قطار الزواج كان قد فاتها ، فأدرت الحديث بسرعة .

— لم تنامى ليلة البارحة ، أليس كذلك ؟ .. ألا تذكرين شيئا غير عادى كان فى نطاق البيت ؟

ـــ مطلقا ، إلا إذا كان نباح الكلاب يقلق . فى الشقة التى فوقنا ظل كلب يعوى طول الليل .

ـــ وأين تسكنين ؟

فلما أجابت أجبتها :

ـــ وبات الكلب يعوى لأن صاحبه حمل مريضا أمام عينيه .

فعجبت لعلمى ، ثم تذكرت أننى طبيب .

ثم حضرتنى من جديد الكلمات العالقة بذهنى ، الباقية على طرف لسانى كأنها بقية مشروب ، فقد كانت حياتها غير طبيعية وحياة جارها الذى فوقها غير طبيعية كذلك ، كلاهما كان « فردا » .. لم يتزوج .

والطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا ، فإذا أعطتنا شيئا ولم نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءا .. أعنى أننا نمرض .

قلت للست منيرة :

ـــ إذن فاستشيرى أحد أطباء الأعصاب .

ـــ وأعود إليك ؟

ـــ وعودى إلىّ .

وانصرفت .

وأخذت أجمع حاجاتى قبل أن أغادر العيادة وفى ذهنى صورة سقف من الزجاج يفصل بين هذين المريضين ليستطيع كل أن يرى كيف يقضى صاحبه سواد الليل .. لعلّ أحدا منهما يستطيع أن يسعد الآخر ..

وقلت فى نفسى : « لو تهدم السقف الذى يفصل بينهما ، لتهدمت معه أسباب الشقاء الذى يسيطر على حياة كل منهما .. ولكن هيهات .. لقد ذهب الرجل .. مات ..

الشيء الممكن

أحست سعاد بوحشة شديدة فى أول يوم من أيام العام الدراسى الجديد فى مدرستها الثانوية . لم تكن المدرسة جديدة عليها ، بل على العكس كانت مليئة بزميلات وصديقات التقين جميعا فى « الحوش » تحت ظل الأشجار المنشورة ، وتبادلن القبلات والتمنيات ، وتضاحكن ، وتعانقن . وكنّ يسكتن فجأة خلال الحديث الذى تسرد فيه ذكريات الصيف المنقضى لتقول واحدة منهن : « يا خسارة .. هكذا ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد ! »

أما هذه التى تحدثن عنها فقد كانت فى بيت أبيها بعد أن انقطعت عن الدراسة ، مشغولة بشيء غير الذى يتحدث عنه زميلاتها . وصديقتها سعاد التى تصاحبها الوحشة الآن من أجلها ، تعلم قصتها بكل ما فيها ، وتعلم أنها لا تذكر لقاء الصديقات فى أول يوم من أيام المدرسة إلّا بالطريقة التى يذكر بها الكبار فرحة الأطفال ببدلة العيد ، فقد أصبحت مخطوبة ، وخطيبها اليوم هو حبيبها بالأمس .. وهى بعد ذلك كله ، أو قبل ذلك كله ، فتاة لها من اسمها نصيب .. وأحلامها كثيرة وطاقتها فى احتمال الهموم أو الأسرار محدودة جدا !

وقد كانت سعاد مكملة لها فى صداقتها . كانتا إذا اجتمعتا فى بيت إحداهن سرحن فى الحديث حتى تستأثر أحلام بالجزء الأكبر منه ، بل وربما كلّه ، ثم تفيق فجأة وقد رفعت أهدابها التى يثقلها الخيال وتقول لسعاد فى شبه اعتذار :

— أنا أشعر فى سلوكى معك بأنانية كبيرة .. ألا تتضايقين منى يا صديقتى ؟ أرجو ذلك . لكن غدا عندما أتزوج سأضع أذنى تحت تصرفك !.. أقسم لك أننى سأكف عن الكلام معك على الأقل ! وعندئذ يأتى دورك يا حبيبتى لتكلمينى عن كل ما تشائين . على أنك بطبعك قليلة الكلام ! هل تدرين يا سعاد ماذا تشبهين ؟

— لا ..

— إنك تشبهين فى نظرى مخزن المئونة .. شىء غنى ، حنون ، صامت يأخذ منه المرء ما يشاء ثم يقفل بابه على الباقى حتى يعود إليه مرة أخرى . هل تشعرين بمقدار حبى فيك ؟

وبهذه الذكريات كانت سعاد تمشى وحدها فى « حوش » المدرسة بعد أيام ، أما أحلام فكانت تمشى بها فى مساء اليوم نفسه فى أحد شوارع العاصمة الكثيرة الزحام مع خطيبها ، فى طريقهما إلى زيارة أمه .

وفى اللحظة الأولى التى يبدأ فيها فراق الأصدقاء ، يسأل كلّ نفسه ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلب على الزمن وصنع النسيان ؟ وتبدو المشكلة فى الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد والتعويض تقهر كل شىء وتضمن لحياتنا الاستمرار .

فما لبثت سعاد أن اندمجت فى صحبة مدرسية جديدة ، وما لبثت أحلام أن اندمجت فى حياتها العائلية ، وأصبحت الزيارات وأصبح اللقاء متناسبا تماما مع الوضع الذى آلت إليه الصديقتان .

وفى بدء العام المدرسى الجديد ، وتحت الأشجار المتناثرة فى حوش المدرسة نفسها ، وقفت ثلة من البنات يتضاحكن ويسلمن ويذكرن الصيف الذى فات . حتى قالت إحداهن فجأة : « يا خسارة .. هكذا

ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد !! » .

أما التي غابت في هذه المرة فقد كانت سعاد . كانت في بيت أبيها مشغولة بغير الذى تتحدث عنه البنات ، فقد أصبحت مخطوبة مشغولة بتجهيز سريع لتنتقل فى أقرب فرصة إلى آخر مقار الدنيا بالنسبة للمرأة : بيت الزوجية !

وأصبحت الصديقتان زوجتين وغابت عن ذهنهما ذكريات المدرسة .. بعدت كما يبعد صدى الصوت . وأصبح حديثهما فى كل لقاء متعلقا بالرجلين اللذين يخصانهما ، ومن بعد ذلك يأتى الأمل فى المستقبل.

وفى إحدى الليالى دخلت أحلام بيت صديقتها مهمومة ، ولما استقرت بهما الجلسة لم تتحدث أحلام كعادتها عن الزواج على حب ولا عن النقص الحقيقى الذى ينجم — فى نظرها — عن التقاء الزوجين بطريقة غير طريقة الحب . وأحست صديقتها بالهم الذى يخالط نفسها ، فلما سألتها عنه أخبرتها أنها تعانى قلقا يكون مبهما أحيانا وظاهرا أحيانا .. وأن مرجع هذا القلق هو زوجها .

قالت أحلام :

— لقد مضى علينا عامان ونحن زوجان ، ومازلت أكن له طاقة من الحب أعتقد أنها أعلى بكثير مما يكنّ لى . لا تعترضى علىّ فأنا أعلم مقدما ما ستقولين ، ستقولين إنه مثل نار المدفأة يبدأ شرارة ثم يتلهب ثم يتحول إلى جمر هادئ ، وقد يتحول إلى رماد ! كلنا يا صديقتى بما فينا ، أجساما كنا أو أرواحا ، نسلك نفس الطريق .. فأنا لا أعاتبه على شيء يتفق مع هذه القواعد . لكن الذى أحسه هو أننى مهددة فى كنز .. كنز عزيز أملكه .. وهناك من يتربص له ليسرقه منى !

لقد كان زوجى يتعمد ليلة البارحة أن يثير غضبى وهو يسلم عليها . حقيقة أنها ابنة عمه لكننى كنت على وشك البكاء . ولما أحس بغضبى ثار عناده وعاد إلى ما نهيته عنه .

ثم صمتت أحلام ورفعت أهدابها الغزيرة عن عينين تموجان بالعواطف ، وحملقت فى صديقتها مدة طويلة حتى تخيلت سعاد أنها هى المتهمة . وما المانع ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك مما يدور فى خلد أحلام ؟ إنها امرأة غيور وزوجها رجل كثير التحبب ، قلبه فى رقة النسيم ونقاء الماء ، وحين يأتى لزيارتهم تطول عندها السهرة كذلك ، وقد علقت أحلام على ذلك وفى دعابة خفيفة معلنة أن زوجها لا يطول جلوسه إلّا إذا كان عندها .

وخطفتها صديقتها أحلام من أفكارها قائلة لها :

— نحن على كل حال منقولان من العاصمة فترة لا يطول أمدها ، لأن فى نقله ترقية له . وكل ما يحزننى يا صديقتى أننى لن أجدك قريبة منى فأنت التى أستطيع أن أبثك شكوى قلبى .

غير أن وقع الخبر على سعاد لم يكن مؤلما .. كانت تحس أنها بعدت حتما عن مجال الشبهات فى نفس صديقتها . إن هذه المشكلة لم تولد بعد ، ولكن أليس من الجائز أن تكون جنينا ؟

وقبل أن تفترق الصديقتان انسكبت بينهما دمعة وفاء ..

وكانت خطابات أحلام إلى صديقتها تحمل طابع الراحة أكثر مما تحمل من طابع السعادة .. ثم ظهر فيها القلق مرة أخرى ، ثم لحقها الفتور ، ثم انقطعت . ولم تعد كل منهما تعلم عن الأخرى إلّا ما يحدثها به قلبها أو ما تضمره لها من تمنيات .

حتى كانت ليلة من الليالى .. دق جرس الباب فى شقة سعاد بالقاهرة ، ثم أعلنت الخادمة اسم السيدة أحلام . ولما التقت بها صديقتها رأت عليها أشياء أنكرتها لأول نظرة . لكنها تجاهلت كل ما رأت وجلست تسألها عن أحوالها فى بشاشتها المألوفة . وبعد قليل علمت أن شقة الخلاف بينها وبين زوجها قد اتسعت وأنها جاءت إلى القاهرة وحدها لتقيم عند أبيها ريثما تهب الريح فى اتجاه يرضيها .

ولم يكن حزنها كمدا . لم يكن حزنا صامتا يصحبه التسليم أو الذهول ، بل كان حزنا حانقا من النوع الذى يشفيه الانتقام ، وسألتها سعاد عما جدّ فى الأمر وهى تقهر فى نفسها تهكما خفيّا يريد أن يظهر :

ـــ امرأة .. مرة أخرى يا صديقتى ..

ـــ لا أكاد أجزم .. كل ما فى الأمر أنى أحس أن كنزا ضاع منى . لا أعرف اليد التى أخذته ، وربما يكون قد ضاع فى الهواء .. تبعثر فلم ينتفع به سواى .

وأحست سعاد وهى جالسة معها بشىء من الغرور .. غرور الربان الماهر الذى ينجو بالسفينة التالفة من شر العاصفة على حين أن غيره قد أغرق سفينته الجيدة الصنع فى البحر الهادئ .. لو أنهما تبادلتا الموقف ما استطاعت أحلام أن تعيش مع زوجها هى شهرا واحدا .

ولما هدأت أحزان الضيفة سألتها سعاد فى حنان :

ـــ هل أصبحت تكرهين فيه كل صفاته ؟ ألم يبق فى هذا الرجل الذى كنت تعشقين خلاله كلها ، صفة واحدة تستطيعين أن تحبيها ؟

فأجابت بيأس :

ـــ لا أعرف ..

ـــ إذن فحاولى مخلصة أن تعرفى ، وستجدين فى إحدى خلاله نقطة تبدئين منها الحب من جديد .

وضحكت أحلام فى شىء من الراحة ، ثم قامت معها إلى العشاء وعندما خلا بهما المكان مرة أخرى قالت ربة البيت :

ـــ اسمعى يا أحلام .. عندى قصة ، فهل ترغبين أن تسمعيها ؟

فلمعت بسمة على ثغرها الحزين ، على حين استطردت صديقتها تقول لها :

كانت فى السن التى يفكر فيها الأبوان بالنيابة عن بنتهما فى العادة .

وكانت من البيئة التى يفكر فيها الأبوان عن البنات فى العادة .

وباختصار شديد زوّجوها من الرجل الذى اختاروه لها .

والحياة الزوجية أشبه بطريق طويل يعترض الزوجين فيه ـــ بين مرحلة ومرحلة ـــ ستار بعد ستار . وكلما رفع أحدهما ستارا رأى من خلفه شيئا لم يكن يدريه .

والمهم يا صديقتى أنها منذ الليلة الأولى بعد لقائها بزوجها ، رأت منه كل ما تكره . أحست أنها تزوجت أداة من الأدوات ، نوعا يكاد يكون خاليا من العواطف. هو حقيقة ملىء بالحياة ! لكن إذا كانت الحياة شجيرة فإن العواطف أزهارها ، وهى خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا . وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئا بكل شىء إلّا الأزهار .

كانت تحس نفورا من الرجل وإن شاركته حياته .. حتى ماذا ؟ حتى إنها لم تكن تعلم عن غدها شيئا .. شاركته الحياة والسلام ، وأجبرت نفسها بكلمة قالتها تلميحا ، كلمة « نعم » التى قالها والداها تصريحا يوم

خطبتها له .. هل تسمعين يا أحلام ؟

كانت تصلّى كلما كانت مهمومة ، خصوصا فى الليل عندما تتكاثر على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة .

وفى إحدى الليالى حاولت أن تتجه إلى الله فى صلاتها بمشاعرها كلها . أحست أنها تريد أن تكلم أحدا وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة آلية بدأت صلاتها . ورويدا رويدا زالت الآليّة عن الصلاة وحل محلها اندماج وخشوع وشىء يكاد يكون اتحادا . فلما فرغت رأت دموعا على خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التى تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصبر من يتكلف الصبر . ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويبكى من يتكلف البكاء .. وقد يحب من يتكلف الحب .. هل تسمعيننى يا أحلام ؟

— نعم أسمع ..

— ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث فى زوجها عن نقطة تبدأ منها « عملية الحب » ، فوجدت فيه شيئا جديرا بالحب ، هو أنه رجل صبور شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلت ؟

صارت تتعمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تتجه إلى قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحب هذا أيها الجاحد ؟ » .

وكانت كلما سجلت فى إثارته رقما سجل فى الصبر والعفو عنها رقما أعلى . حتى كان يوم من الأيام فانخرطت فى بكاء شديد بعد إحدى التجارب .. واحتضنته بحنان وهى تقول له : « أنت لا تدرى أى رجل أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك » فأحست فى روحه بعثا

جديدا ..

ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب .

وتنهدت سعاد كأنها تستريح من الكلام ، وتنهدت أحلام كأنها تتمنى أن تسلك نفس الطريق . وكانت على وجهها فى هذه اللحظة آيات الرضا التى تظهر على من يستريح فى أعقاب سفر متعب .. ثم قالت لربة البيت :

— جائز .. جائز أن يحدث مثل هذا وأن تكون هذه المرأة موجودة فى دنيانا .

فأجابت سعاد :

— إنها موجودة .. إنها هى التى تحدثك . إنها قصتى يا أحلام ..

فردّت فى ذهول :

— حقيقة ؟ لم يكن يبدو ذلك .. ! كان كل شىء هادئا باستمرار . إنك رائعة ..

ليس فى الموقف شىء خارق للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة ، وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة الأولى ..

فقالت أحلام : « سأحاول بكل ما أستطيع » .

السلوى

كان جو الليلة مائلا إلى البرودة ، وعلى الأرض بلل من مطر يعكس الأضواء الزاهية بألوانها كلها على أسفلت الشارع . والجمهور الخارج من السينما يتطلع إلى السماء متعجلا عودته إلى البيوت .. فقد كان الجو ينذر بمطر جديد والعشاق والأزواج يلوذ بعضهم ببعض كأنهم يطلبون الدفء .

ولم تكن سيارات الأجرة الواقفة على مقربة من السينما قليلة فى هذه الليلة ، ولذلك كان سائقوها يتعجلون كل نداء .. وأول سيارة تحركت من المكان كانت قاصدة إلى مصر الجديدة يقودها شاب على رأسه قلنسوة من الصوف نزلت حتى أذنيه لتمنع عنه البرد .

أما الراكبان فقد كانا رجلا وامرأة كل منهما فى متوسط عمره ، عليهما طابع الأناقة ويبدو أنهما غير زوجين . وبعد أن أقفل باب السيارة ملأ العطر أنحاء المكان وتنهدت المرأة وهى تضطجع فى الركن ، وجلس صديقها على مقربة منها متلامسين وإحدى كفيها مسترخية بين كفيه .

أما السائق فقد كان مرهف السمع . أذنه متأهبة لأن تسمع كل همسة لأنه كان يعيش فى مأساة شخصية منذ ثلاثة أسابيع . وكان يسمع فى ثرثرة بعض الركاب من خلفه ما ينسيه ألمه أحيانا .. ثم يفيق إلى الطريق حيث توقفه الأنوار الحمراء أو تسمح له الأنوار الخضراء بمواصلة السير .

وحتى ميدان باب الحديد لم تصدر كلمة من أحدهما . ولما وقعت الأنوار البنفسجية من المصابيح الساهرة فى الميدان على وجه المرأة ، خيّل

لصديقها أنه يراها مسبلة الأجفان وكأنها تحلم ، فسألها بصوت سمعه السائق :

— لماذا أنت ساكتة ؟!

فأجابت وكأنها استيقظت من النوم :

— آه .. يمكن .. ربما .. لأنني لا أريد أن أهوش الصورة العالقة فى ذهنى من بعض مناظر الفيلم .

وعندئذ تذكر السائق العنوان الكبير المكتوب تحت الأضواء على واجهة السينما ، وتذكر صورة رجل قد وضع كفه تحت ذقنه وهو جالس يفكر وعلى مقربة منه وجه حسناء .. والفيلم نفسه اسمه « خيال حسناء » ، لكن السائق لا يعرف تفاصيله . غير أنه أحس أن علاقة معينة وإن كانت مجهولة تربطه بكل قصة حب .. خصوصا فى هذه الأيام التى يعيشها وكأنه فى دوامة . فتنهد السائق فى الوقت الذى سمع فيه تنهيدة أعلى درجة قد صدرت من الخلف .. من الرجل الآخر .. وبدأت السماء تسكب مطرها . وأخذت المسّاحة على الزجاج الأمامى للعربة تعمل فى رتابة متئدة والشارع ممتد طويل يلمع كأنه نهير ساكن . وانطلقت من خلال هذا الصمت ضحكة عالية من الراكب قال بعدها لصديقته :

— وهل تذكرين منظر الوداع الذى كان بينهما ؟

— آه .. هذا ما لا أستطيع أن أنساه .

— ها ها .. إنه كان متناقضا بحيث ضحكت وأنا أبكى . فعندما قابلته فى الكازينو والمكان خال حولهما ، أخرج كل منهما لفافة وقدمها إلى صديقه فى صمت .. ها ها .. هل تذكرين هذا المنظر ؟ .. كفانا الله شرّ ذلك .

ثم ضغط على كفها التى أحس بالبرودة تسرى فى أطرافها ، ولم يستأنف الحديث مباشرة . وفى هذه اللحظات التى ظلل فيها الصمت إلّا من أزيز محرك السيارة ، رجع السائق بذهنه إلى أيام يتذكر الخلاف الذى دبّ بينه وبين أهل خطيبته ، وكيف أنه ذهب إليهم ذات مساء فدخلت عليه حماة المستقبل وقدمت إليه لفافة .. تركها السائق موضوعة حيث كانت وظلّ يحملق فى وجه المرأة بعينين تفيضان بالاتهام ..

ثم صدرت من الراكب سعلة خفيفة أعقبتها ضحكة صغيرة من السيدة ، قالت له بعدها بصوت هامس لا يخلو من الدعابة :

ــ ألم أقل لك إنه يجب أن تُترك التدخين ؟

ــ وأنا ألم أقل لك إنه يجب أن تتركى .. (وهمس بصوت خافت) .. الحب .

ــ نعم قلت .

ــ لا التدخين ولا هو .. أستطيع أن أتركهما .

وكان السائق فى هذه اللحظة على الرغم من سماعه ما قيل لا يزال واقفا بأفكاره عند اللفافتين .. اللفافة التى قدمت إليه واللفافة التى تبادلها البطلان فى الفيلم .. وأطفأ شوقه سماعه للرجل يكمل الحكاية .

ــ ولما تبادلا الرسائل فأخذت ما سبق أن كتبته إليه وأخذ ما سبق أن كتبه إليها ، وأوشك الموقف على الانتهاء تقدم إليها برجاء ما لبثت أن نفذته بسرعة وصمت واهتمام . هو أن ينسخ صورة بخطه هو من أول رسالة حب كتبتها إليه ، وفعلت هى مثل فعله . وقد أثار منظرهما الغاضب وهما منكبّان على الكتابة ضحكى ودموعى ..

فشهقت السيدة وهى تضحك فى إشفاق .. وعاد الصمت فخيّم على

المركبة . وتذكر السائق ليلة أخذ اللفافة التى قدمتها إليه المرأة ، وفتحها فإذا هى تحتوى على القرط والدبلة اللذين قدمهما شبكة لفوزية .. ذات العينين السوداوين والقوام اللين . وكان على يقين وهو يضع الأشياء فى جيبه بحماسة الرجل المطرود الذى يدافع عن كرامته ، كان على يقين من أن فوزية تبكى فى الحجرة الأخرى . ومنذ ذلك اليوم وهو يحس بإحساس من يبحث عن شىء ضائع ، فهو يحملق فى كل الوجوه كأنه سيراها فى خيال كل امرأة .. وهو يستمع إلى كل قصة ليلتمس فيها الملهاة والسلوى ، وحدث نفسه :

— « لو كانت فوزية تعرف الكتابة لأرسل إليها خطابا بطريقة ما وتلقّى منها الردّ . إنه لا يشك فى أنها تحبه لكن أمها تصرفت بالنيابة عنها . وأبوها رجل كسير الجناح ضعيف لا كلمة له ، فلو كان ذا شخصية فى بيته فربما تغير الموقف » .

وتنهد وعاد يمصمص بشفتيه .

وقالت السيدة الجالسة فى المقعد الخلفى هامسة فى أذن صديقها :

— يظهر أن النعناعة التى فى فمه لم تذب حتى الآن .

وضحكت فى خفوت ، وأراد صديقها أن يغطى على ما قالته خوفا من أن يكون الرجل قد سمع ما قالت ، فتنحنح وعاد يتكلم بصوت مرتفع عن حوادث الفيلم :

— « لقد رحل إلى أمريكا الجنوبية بعد ذلك ليغير الجو والناس .. مسكين .. تصورى أننى رثيت لحاله كأننى كنت أعرفه حين رأيته يحمل متاعه كئيبا ليهاجر إلى بلد آخر .. و .. » .

فقاطعته السيدة قائلة باعتزاز وثقة :

— ونسى أن الذكريات ترحل مع كثير من الناس . ألم ترحل معه فعلا ؟ بالعكس .. كان انكبابه على أعمال الزراعة هناك وإغراق نفسه فى العمل ، دليلا على أنه عاجز عن المقاومة ..

فتمتم الرجل قائلا :

— آه .. يعنى .. ماذا إذن تظنين أن يفعل الناس ؟!

وساد الصمت مرة أخرى . وكانت السيارة قد اجتازت ميدان العباسية وأخذت فى الاتجاه إلى طريق مصر الجديدة ، وانخرط السائق فى الأفكار :

— « هل من الممكن أن أهاجر من القاهرة .. لأنسى .. ما دام البعد عن أماكن الحوادث يساعد على النسيان ؟ لكن .. إنها هى ذى أمامى .. إننى أراها تهتز فى هذه « العروسة » المعلقة أمام الزجاج فى العربة .. كأنها تنظر إلىّ بعينيها . فقط لو أنهم صارحونى بالسبب الذى من أجله عملت أمها معى هذا العمل القبيح ؟! »

وعاد يمصمص بشفتيه ، فغالبت السيدة ضحكة غالبتها وقالت تهمس :

— يظهر أنه وضع فى فمه نعناعة أخرى .!!

فما كان من صديقها إلّا أن رفع صوته ليدارى على حماقتها قائلا :

— هل تذكرين السبب الذى حملهما على الخلاف ؟

فأجابت بدلع :

— نعم .. لقد عذبها بغيرته عليها فى كل مناسبة ، وكان آخرها قصة غيرته من معلم الموسيقى العجوز الذى كان يتردد عليها فى بيتها ، ثم قدم إليها هدية بمناسبة عيد ميلادها . وحاولت أن تقنعه أن الفنانين فيهم رقّة

فطرية بالنسبة لكل الناس .. لكن .. عبثا حاولت معه .. واتسعت شقة الخلاف حتى أدّت إلى الفراق ..

— على أن أجمل شعور إنسانى أعجبنى هو شعورها نحوه بعد غيابه .. فكما كان هو يحرق نفسه فى أعمال الزراعة لينسى كانت هى تحرق نفسها بطريقة أخرى ..

وسكت وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة ، وخيل للسائق أنه نسى الموضوع .. وكاد يتدخل ليسأله عن المسألة لكن لطف الله به جعل الراكب يقول :

— كانت المسكينة تسهر كل ليلة لتكتب له رسالة طويلة تقول فيها كل ما تشتهى .. ثم تمزقها .

عندئذ خيم السكون مرة أخرى فعاد السائق يفكر :

— « آه .. لو كانت فوزية تعرف الكتابة ! مسكينة إنها لا تملك أن تكتب حرفا ولا تملك أن تنطق حرفا .. فى وجه أمها ولا أبيها حتى ولو كان مرتبطا بمستقبلها » .

ومصمص بشفتيه وأخذ يسترجع سلسلة الحوادث بينه وبين أسرة خطيبته منذ عام مضى حتى الليلة المعهودة ، فتذكر شيئا أثار شكوكه . سعد الدين أفندى ناظر الزراعة الذى كان يتردد عليهم ، والذى قالت عنه فوزية ذات يوم إن زوجته قد ماتت ، ثم أخذ يحمل الهدايا الكبيرة من مال غيره لأم فوزية من بواكير العنب والمانجو والبطيخ بصرف النظر عن أنه من سن أبيها . وقد رأت الأم أن الفرق بينه وبين سائق تاكسى فرق كبير . نعم .. لقد رأى ذلك فى عينيها ذات ليلة والضيف عندهم ، لكنه لم يكد يصدق ظنونه ..

ثم قال فى نفسه : لكن .. أليس من الجائز أن تهب الرياح فى اتجاه آخر .. أن تموت أم فوزية .. أو أن يموت سعد الدين هذا .. أو أن تهدد فوزية أمها بالانتحار إن زوجتها منه فترجع إلىّ ؟.. لكن .. هناك حل أسهل من كل هذا هو .. (وكاد ينطق بأفكاره) هو .. أن أموت أنا ..

وأحس بغصة فى حلقه وبحاجة إلى الدموع . وجاءه صوت السيدة من الخلف تقول : يا لها من رواية .. لعن الله الحب .. لقد عذب الاثنين ..

فخرج إلى القصة الأخرى وقال بينه وبين نفسه :

— سأجعلها فألا لقصتى ، فإذا عاد الحبيبان فى الفيلم كل إلى الآخر عادت إلىّ فوزية .. وإلّا .. لا ..

وعندئذ جاءه صوت من الخلف يقول :

— البيت الثانى على اليمين بعد الناصية .. من فضلك .

وهناك نزلت السيدة . وواصلت السيارة شوطها .. فقال السائق فى نفسه لماذا لا أسأله الآن عن ختام القصة عسى أن يكون فيها أمل ، فضلا على أنها شىء مشوّق .

وأخذ يجمع شتات شجاعته ليسأله عن نهاية الفيلم .. وتردد .. وعاد يمصمص بشفتيه .. وأخيرا استجمع قواه وهتف :

— يا سعادة البيه .

فردّ عليه صوت مرح يقول ضاحكا :

— كأنك تعرف البيت .. نعم . نعم . هو التالى إلى اليمين .. لعلك جئت معى مرة قبل ذلك .. قف !

فوقف .. ونزل الراكب ببقية القصة ، وتحرك السائق بأثقال قصته ، وقبل أن يفيق من غمرة الأحداث التى بخلت عليه بالسلوى ، سمع صوت

رجل مخمور ينادى بصوت متلعثم ويشير بحركات مضطربة قائلا :

ـ تاكـ .. سى .. تاكـ .. سى !

فذهب إليه وهو يلقى نظرة على العروسة المعلقة فى مقدمة العربة التى تتأرجح أمام عينيه .. كأنها طيف من الذكرى .

اقتلونى بسيف الحب

تعرفت على ابنها فى السنوات الأخيرة ، عقب تعيينه موظفا معنا فى الديوان .

ويوم دخل علينا مكتبنا ، نظر بعضنا إلى بعض نظرات ذات مغزى .

وحين كان يفتش أدراج المكتب الخالى الذى مات صاحبه فأخلى له المكان والدرجة ، كانت نظراتنا تقول : يا له من شاب ثقيل !!

كان يبدو متكبرا مغرورا ، تحصنت كبرياؤه فى وجه وسيم لا تسمح ملامحه لأحد أن يسخر منه .. وتحصن غروره فى قلة الكلام فهو لا يشارك فى حديث يتطلب الرأى إلّا بحذر شديد .

لكننى اكتشفت فجأة أن هذا الهيكل الجميل المنفوخ المتكبر يحمل بين حناياه قلبا طيبا ساذجا ، يتشهى ويتمنى ، ويتحصن من الناس بشيء واحد ، هو سوء الظن .

كان ذلك والوقت صيف حين خلا علينا المكان ، وبقية الزملاء فى إجازة ، ودخل علينا عامل البوفيه ليجمع الأكواب ويفرغ من الطقاطيق أعقاب السجاير .

وكان اليوم أول الشهر ، وكنا نعرف عن هذا العامل سمعة معينة ، ورأيت العامل ينظر إلى صدقى أفندى نظرة فيها قلق ، ثم خرج من الغرفة دون أن يتكلم ثم عاد متلمسا عذرا ، ونظر فى نواحى الحجرة كأنه يفتش عن فنجان ، فقلت له وأنا أفتح أدراج مكتبى ساخرا منه : تعال ! تعال ! فتّش ها هنا فربما وجدت فنجانا !

فخرج وهو يهز جسمه الطويل ، لكنني أشفقت عليه وأخليت له المكان بعد لحظة وذهبت لبعض شئونى ، وحين فتحت الباب من جديد كان العامل قد أنهى حديثه مع صدقى أفندى وسارع بالخروج فى اللحظة التى كنت أستقر فيها على كرسى مكتبى .

ألقيت على زميلى نظرة جانبية شامتة ساخرة فى وقت واحد ، ثم قلت له وأنا أفتش فى جيبى عن علبة السجاير : « وقعت يا حلو » ؟

فرفع صدقى رأسه من بين الأوراق وقال وهو يضحك بفمه الصغير :

— « بإرادتى والله .. صدقنى .. بإرادتى والله » .

فأجبته : « لا داعى للمبالغة ، فإن الرجل محتال خطير » .

فأجاب صديقي : طبعا .. أنا أعلم ذلك !

فقلت له : وألذ ما فى احتياله أننا نسقط فى شبكته ونحن نعرف أنه محتال . هل أخذ منك نقودا ؟

— نعم ، أخذ .

فقلت وأنا أقهقه :

— غريب أن يحدث هذا وأنت رجل حذر .

فقال وهو يتنهد :

— أتعتبر هذه غفلة ؟

فقلت ووجهى غير ناظر إليه ، وأنا أنفخ تراب سيجاره الذى سقط على أحد الملفات :

— غفلة بلا شك .

فاستطرد :

— ليتنى كنت مغفلا .. فأحب كل الناس ؟!..

ثم زاغت عيناه فى فراغ الحجرة ، حتى تركزتا على برنيطة المصباح المدلى من السقف فى سلك طويل ، ثم استرد نظرته وألقاها علىّ وهو يقول :

ـــ أحمد .. تعال هنا لحظة ، إن كان عندك وقت .. تعال .

وجلست على كرسى من الخيزران مرخى النسيج من كثرة ما استعمل ، فقدم لى سيجارة أخرى . ودق جرس مكتبه فدخل علينا عامل البوفيه نفسه وقد زالت من عينيه نظرة القلق ، وألبست الطمأنينة وجهه نورا وهدوءا وبشاشة . فطلب صدقى فنجانا من القهوة ، ثم مال علىّ يتكلم :

ـــ هل تعجب من هذه الأمنية التى أتمناها ؟! إننى أطلبها من الله منحة من عنده . تأكد يا أخى أن المغفل الذى يحب كل الناس أسعد بالا من الحذر الذى يسيء الظن بكل الناس . وأنا لا أزال أذكر حكاية جدتى .. أم أمى التى كنت أحبها كثيرا ..

فهززت رأسى أستزيده فاستطرد :

ـــ رأيتهم يخرجون بها من البيت وأنا ابن ثلاث سنوات بطريقة غير مألوفة ، مفزعة لم أفهم معناها ، بين صراخ وعويل . فلما دخلت حجرتها فى المساء فلم أجدها قالوا : إنها مسافرة . وظللت أرقب عودة المسافرة ولكنها لم تعد ، حتى بلغت سنا عرفت فيها أن كلمة السفر فى بعض الأحيان ترادف كلمة الموت .

فقلت : طبعا ، فقد كنت طفلا صغيرا .

فقال : لكننى نجوت من مشكلة فهم الموت ، ومشكلة الحزن على الموتى بسبب غفلة الأطفال ..

والمغفلون أطفال .. سعداء فى عالم الحب .

فقلت وأنا أقطب جبينى :

— وإلى هذا الحد أحببت الحب ؟!

فأجاب وهو يهز رأسه فى إصرار :

— نعم ، ولكننى لم أصل بعد إلى ما تهفو إليه نفسى .

— لماذا ؟

— ذلك شىء قديم ..

— جدا ؟

— قدم طفولتى .. أنا ابن السابعة والعشرين إن لم تزد .. هل هذا قليل ؟..

اسمع !!

لم ينجب أبى من الأطفال سوى اثنين فحسب .. بنت صارت عروسا ، وولد صار شابا هو أنا . وكانت أختى أكبر منى ، وكانت مختلفة مع أمها باستمرار لأمور لست أعلم تفاصيلها وإن كنت أعلم بعضها . لكن الذى يهمنى الآن هو أن أقص عليك حادثة معينة وقعت فى أسرتنا مرتبطة بما نتكلم عنه ، مرتبطة بالحب الذى يصل إلى درجة الغفلة ، والحذر الذى يصل إلى درجة الهستريا . فاسمع !

كان باب الوسط يفصل بين الحجرتين ، الحجرة التى أذاكر فيها وأنا غلام ابن اثنى عشر ربيعا ، والحجرة التى تجلس فيها أمى وأختى الكبرى .

وتوقفت عن المذاكرة حين وصل إلىّ صوت نقاش حاد نشب بين أمى وأختى ، وقام هذا النقاش عقب انصراف ضيوف من شقتنا .

وكان الكلام يصل إلىّ واضحا إلّا من بعض ألفاظ لم يكن غيابها

يشوش الحادث ، وكانت أختى تلوم أمى على أنها أغلظت القول لهذه الأرملة صديقة أمى القديمة ، والحديثة الترمل . كانت أمى تريد أن تحدد العلاقة بينها وبين هذه الأرملة بعد أن أبدت رغبتها فى الاستعانة بمجهود أبى على تسوية أمر معاشها هى وأولادها . وتخيلت أمى أن المسألة ليست مسألة معاش ولكنها مسألة خطة . وأن هذه الأرملة التى بدا الانكسار على جمالها فزاده فتنة ، ستستولى على أبى بعد جولة أو جولتين .. فتحرشت بها أمى حتى أغضبتها . وحين قالت لها الأرملة وهى تبكى عند باب المسكن : « والله لن أدخل عتبتكم بعد اليوم ..» لم تردّ أمى عليها . وكانت أختى فى الداخل تخفى دمعها بين كفيها .

ولم تعد المسكينة بعد ذلك إلى بيتنا قط .. واستعانت بالله وبناس غير أبى على قضاء مصالحها . ولم تحاول أمى أن تصل حبل ودها فغابت ذكرياتها فى ضباب الليالى ..

وكل هذا لم يكن غريبا على خصال أمى ، فقد كانت معاملتها دائما تدور حول هذا المحور : الحذر الذى يولّد الكره ، أو الاحتياط الذى يشبه الهستريا .

وقد لقنتنى هذا وسقتنى إياه ، وإن أصبحت أكرهه كما يكره الخمر مدمن الخمر .

لهذا ترانى هكذا ، كما ترانى ، لا أشذ عن حذرى إلّا إذا تشوقت إلى معاينة الضد ، كمثل البخيل المخبول الذى يوسع على أولاده مرة من المرات ليذوق طعم الإسراف .

ثم سكت صدقى لأن عامل البوفيه دخل ليجمع الأكواب ، ولما أقفل الباب من ورائه وهو خارج استطرد صدقى يقول :

ـــ لقد أعطيت هذا المحتال جنيها طلبه مني . لقد أدلى إليّ بعذر محبوك ، لكنني واثق من أنه استعمله مرة قبل ذلك عند موظف آخر فى الحجزة الأخرى . أعطيته ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان فى كأس من الاحتيال .

قلت لصديقى : هذا غريب ! إنك لم تبد لى مطلقا فى مثل هذا الذكاء . أقصد أننى لم ألمس عمق أفكارك من قبل كما لمسته فى يومنا هذا . فلماذا تبدو اليوم هكذا يا أخى ؟.. وضحكت فقال :

ـــ أغبى الأغبياء يستطيع أن يصف لك تجربة عميقة على شرط .. على شرط أن تكون شخصية وذات أثر بعيد المدى فى حياة هذا الغبى .

وابتسم صدقى ثم سكت .. ثم قام ففتح مصراع الشباك الثانى ليدخل هواء أكثر .

وكان ضجيج الآلات الكاتبة فى الجناح المواجه يأتى إلينا وكأنها فرقعة لوز .. فرقعة متصلة لا تكاد تنقطع . ثم جلس وتنهد ليستأنف القصة :

ـــ أما أختى « عنايات » فقد كانت بعكس أمى .

فنبهته وسألته :

ـــ تقول : كانت ؟!

ـــ نعم .. كانت . وأنا أقصد ما أقول .

ـــ وهل تغيرت بعد ذلك ؟

فهزّ رأسه فى أسف :

ـــ لا تقاطعنى .. لا تأخذ الحكاية من الذيل .. انتظر .

كانت بعكس أمى . كانت تحب الناس .. كانت ألوفة تحرص على أن تعرف مصير جلبابها القديم الذى تخلعه . لكن أمها كانت بمثابة الشكيمة

من الحصان تمسكها فجأة إذا نسيت أو اندفعت . وكأنما أراد القدر أن يجعل نهاية حياتها الشابة حادة مثل عاطفتها تماما ، فقد كان لنا ابن خالة يتردد على بيتنا ، وكانت أمي واثقة من أنه زوج المستقبل لبنتها الوحيدة . وكان — كما ظهر بعد ذلك — بين الفتى والفتاة حب عنيف . ثم فترت العلاقة فجأة حتى أصبح تردده على بيتنا قليلا .. ثم انقطع .

وبدأت عنايات فى الذبول . وتغيرت أحوالها .. وكثر اعتكافها كما كثر عدد القطع التى كانت تنتجها من أشغال الإبرة . كانت تشتغل كثيرا وتدمع كثيرا وتقفل عليها باب غرفتها بالساعات ..

ونشب الخلاف بينهما وبين أمنا حول هذا الموضوع . أعتقد أن الفتاة كانت قد باحت لها بمكنون نفسها ، وأن الأم التى خيل إلىّ أنها تربط بين العاطفة وجدول الضرب قد قست على ابنتها فى الأمر ، وتخيلت أن الهوى كلمة تكتب بالطباشير .. تكتب بسهولة ثم تمسح بنفس السهولة !

ثم انتهت قصة عنايات نهاية درامية كالتى تقرأ عنها فى الروايات .

سمعنا فجأة أن ابن خالتى خطب ، فلم نصدق ، لكننا تأكدنا حين عقد قرانه على فتاة أخرى . دعنا من قصة الأخرى فهى خارجة عن نطاق موضوعنا .

وتزوج ، وصفى حسابه بالنسبة للفتيات .. لكن عنايات لم تستطع أن تصفى حسابها بالنسبة إليه .

يظهر أن قسمة الحب بينهما لم تكن مضبوطة ، لأن نصيبها منه كان أكبر من نصيبه ، فجاء نصيبها فى المأساة أكبر بالطبع ..

وسكت صدق ، فهززت رأسى أستزيده فقال :

— ثم اعتلّت عنايات .. ثم استبدت بها علتها . وفى أمسية من

الأمسيات حلق على سريرها طائر الموت . عجيب أن نحب فنسعد ، وأن نحب فنموت !

وابتسم وتابع حديثه :

ــ وكنت أنا وأمي إلى جوارها ، أما أبي فقد فرّ من البيت . لم يطق أن يرى شمس شبابها وهي تجنح إلى المغيب وقت الظهر فطار إلى الخارج . وكنت أحملق في وجه أختي بغضب وأسف وحب وحقد . وقمت لبعض شأني وهي مطبقة عينيها ، ثم فتحت عليها باب الحجرة ودخلت ثانيا فإذا بها تفتح عينيها وتبتسم . وأشرق وجهها كله حتى تخيلت أن خضرة الحياة ستدب فيها من جديد ، لكنها عادت فأغمضت عينيها وهي تهمس : « هل جئت .. كانوا يقولون .. إنك لن تعود .. تعال ! »

وماتت عقب ذلك وبقي على وجهها من بشاشة الحب .. شيء أشبه بنور الشفق بعد غروب الشمس كان يزول رويدا رويدا . أما أمي فقد زاد حنقها على الناس أو زاد كرهها للحب بعد هذه الحادثة .

وغابت الحوادث في ضباب الليالي ، وهأنذا أعيش مع أمي وحدنا في بيتنا .. وقد دفعني هذا المحتال اليوم دفعا إلى أن أجرب الحب على النطاق الواسع الذي قد يصل إلى حد الغفلة ، فتذكرت كل ما قصصته عليك .

ومضى على ذلك عامان ..

كان صدقي فيهما كما هو دائما ، وسيما صامتا متصلا بنفسه وحدها ، أشبه بخلية العسل المقفلة لا يدري أحد مقدار ما فيها .. حتى فوجئنا ذات صباح بأمر نقله إلى إحدى مديريات الوجه البحري في مركز أحسن .

ولم يكن أمامه عقبة يعتد بها إلّا أمه تلك المقيمة في بيتها بالقاهرة ، لأنها تحتاج إلى رعاية الأطباء ولا تستطيع أن تفارق ملكها ، ولا أن تعيش في

بلد غريب .

وأخبرنى أن قراره قد استقر على أن يسافر ويتركها ، وأن يأتى إليها كل أسبوع أو أسبوعين على حسب الظروف ليدبر مصالحها .. ولو أن افتراقهما سيكون مرا لأنهما لم يجربا الفرقة قبل ذلك يوما واحدا .

ثم رجانى أن أقوم مقامه فى السؤال عنها لأنها تعرفنى ولو أنها لم ترنى كثيرا ، وأخبرنى صدق بزهو شديد أننى استطعت أن أنال ثقة أمه . فى ماذا ؟! فى لا شىء ! إلّا أن ثقتها شىء غال جدا لا يمنح إلّا لمن منّ الله عليه ووفقه .. وضحكنا .

وحين رأيتها من جديد خيّل إلىّ أننى لم أرها من قبل .

كانت قد تغيرت ، لبست ثيابا من الشيخوخة الموحشة غير ذات الحنان ، تذكرك بجناحين نتف عنهما الريش .. وما قيمة جناح لا ريش عليه لا يدفئ حتى صاحبه ؟!

وشاخ الحذر فى عينيها لكنه بقى حيا . وكنت إذا جلست إليها لا تقصّ علىّ ما تقصه المسنات فى العادة من حوادث ونوادر يوفرها للناس طول العمر ، وتلك من أكبر مميزات الشيخوخة . كانت لا تحدثنى إلّا عن خوفها من النهاية . فقلت فى نفسى : اللهم ارحمنا .. ارحمنا يا رب .

تقضى أيام قوتها خائفة ممن هم أقوى منها ، وها هى ذى تقضى أيام ضعفها خائفة من الموت . ما هذا العمر ؟!..

وهربت منها الخادمة بعد سفر ابنها بعد الزيارة الثانية فخلا عليها البيت . وحين أبدت لى مخاوفها من رقادها وحدها ، أبديت لها استعدادى أن أبيت معها . فسكتت موافقة لكنها تمتمت بكلام فهمت

منه بعد ذلك معنى التردد ، فعدلت .

وحين طرقت عليها بابها فى الصباح التالى لم تفتح لى إلّا بعد مدة طويلة ، وكانت آيات الفناء بادية على وجهها ، وكان ردها على تحية الصباح أن قالت لى : أرسل لابنى برقية ليحضر .. أنا مريضة !!

ثم نادتنى وأنا نازل فرجعت لتقول لى من جديد : أجلها لباكر .. لننتظر وقتا آخر .

لكننى عدت فى المساء فوجدتها متعبة ، فأرسلت لابنها أستدعيه . ولم أذهب فى اليوم التالى إلى مكتبى لأننى توقعت لها مكروها . وأعطتنى أم صدقى عنوان إحدى قريباتها تسكن فى إحدى الضواحى فذهبت إليها وأخبرتها . وبعد ساعتين من عودتى دخلت علينا القريبة ضجرة متضايقة كأنها تحمل على كتفها نصف الأرض .

ونامت العجوز أو غابت عن وعيها لست أعلم . وتركت أنا المسكن وخرجت مؤملا أن أعود فأجد ابنها قد رجع ، لكننى رجعت فوجدت المنزل كما تركته .. صامتا موحشا أشبه بجو الحقول فى الليل بعد أن يخليها الحصاد من كل زرع فلا يبقى فيها مطمع .. وهكذا كانت ساعاتها الأخيرة !!

وعرفنا دقة صدقى على الباب لأنها دقة مذعورة . وقبل أمه فى جبينها وهى مغمضة العينين . ولم يكن على وجه العجوز آثار راحة . من الحاضر ؟ مؤكد .. من الماضى ؟ مؤكد أيضا !! أما ما بعد الموت فعلمه عند الله .

ونظرت إلى ابنها ونظر إلىّ وتذكر كل منا « القصص » ولم نتكلم . تذكرنا « عنايات » التى هتفت قبل أن تموت حين توهمت أن حبيبها

داخل عليها : « هل جئت ؟!.. كانوا يقولون إنك لن تعود .. تعال !! »

تذكرنا هذا فى اللحظة التى فتحت فيها علينا قريبة أم صدق باب الحجرة التى ترقد فيها المريضة ، حين همست المريضة بصوت ضعيف تقول : « هل جئت ؟.. إن عنايات لا تريدك .. اخرج !! »

وتكرمش وجهها بتجاعيد كثيرة جدا ، وظلت دلائل الصرامة باقية عليه حتى آخر نفس .

ماتت البنت وعلى وجهها آثار من بشاشة الحب ..

وماتت الأم وعلى وجهها آثار من كدر الكراهة ..

وكنت أهبط السلم لأساعد صديقى فى بعض الشئون المعتادة فى مثل هذه الظروف ، وأنا أقول فى نفسى : « لا .. يفتح الله يابا .. إذا كان لا بد من إحدى حالتين فلنمت كما ماتت عنايات . اقتلونى إذن بسيف الحب » .

الرجل المريض

ما قابلته مرة وسألته عن الحال ، إلا قال لى بعد أن يرخى شفتيه إرخاء المشمئزين :

ـــ زفت ..

فأكمل ساخرا :

ـــ وقطران ؟

ـــ وقطران ..

فأتركه وأنصرف وأنا أحس سعادة لا نظير لها ، بسعادة الذين ينظرون من وراء الزجاج وهم فى الحجرة الدفيئة إلى الذين يهرولون تحت المطر ، ثم أسير وأنا أسأل نفسى :

ـــ هل حياتى أنا شخصيا تخلو من المتاعب ؟ لا .. لكنها ليست زفتا ولا قطرانا .. إنها مائدة ملونة عليها أشياء كثيرة ، فلماذا يكثر هذا الرجل من الشكوى ؟

وكنت عرفته منذ ثلاث سنوات ، قدمه إلىّ أحد الأصدقاء الذين ألتقى بهم على القهوة مساء كل جمعة ، حيث كنا نلتقى فيشرح بعضنا لبعض ملخص أنباء الأسبوع ، ويتحدث كل منّا عن نفسه فيذكر نعمة الله أو يشكو الهم أو يطلب النصيحة ، إلا عثمان أفندى هذا .

كان يعلق على كل ما يسوء تعليقا أشد إساءة ، ويتجهم فى وجه الذى يقص قصة سعيدة ، ويتشاغل فى نقل قطعة من قطع الشطرنج على الرقعة المربعة .

ومنذ ثلاث سنوات كان عثمان أفندى رقيق الحال ، فى سنة ١٩٤٠ شغل بالنا وباله وبال خادم القهوة بسفالة رئيسه فى المصلحة وسوء اضطهاده له . كان عثمان أفندى يتحدث دائما عن رئيسه إلى حد أننا ظننا أننا عشنا مع هذا الرئيس . وكان يختم شوطه فى اللعب إذا انتصر فيه بقوله بضحكة ودعوة : « ها نحن أولاء قد انتصرنا .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيونى » . ويفعل العكس إذا انهزم : « ها نحن أولاء قد خسرنا الدور .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيونى » .

وأضحك ويضحك الناس . وسألنا وتحرينا — إنصافا للغائب ورعاية لحقه — عما عسى أن يكون قد فعله الأستاذ بسيونى فى الأستاذ عثمان ؟ أعنى عما عسى أن يكون قد فعله الرئيس مع المرءوس ، فلم نجد إلا أشياء غامضة .

— هل نقصك حقك فى الترقية يوما من الأيام ؟

— لا .. ترقية إيه ؟ هل هناك ترقيات ؟ وجهه شؤم والسلام .

— هل يكلفك فى العمل أكثر مما يكلف غيرك ؟

— لا .. غيرى إيه ؟ هل تظن أن الإدارة التى أعمل فيها تشتمل على موظفين ؟.. كلهم حمقى أغبياء ، لا أستطيع أن أتصور كيف يسير العمل هناك لو أننى غائب عنها ؟

— ممّ تشكو إذن ؟

— لا تسألنى عن هذا .. اسألنى عما يعجب فى حياة كلها زفت .

ويضحك بعضنا ويتغامز الباقون ، وأحس وأنا جالس بدفء السعادة . إن لى زوجة مريضة تستهلك معظم مرتبى فى الأدوية ، وكثيرا ما أستدين . وشهيتى أقوى من طعامى ، ولعل ساقى أطول من رجلى

بنطلونى ، ولكننى أرى أن فى الحياة أشياء جميلة .

هناك ولد هو ابنى أنظر إلى عينيه بمحبة وأمل ، وزوجتى المريضة تتحامل على نفسها لتخدمنى ، وقد تناغينى وتدخل على قلبى المسرّة مخفية معالم تعبها ، فأتجاهل وأسعد نفسى وننام بعدها سعيدين نحن الاثنين ، وأهمس بينى وبين نفسى :

— ألا يملك عثمان أفندى فى بيته مثل هذا الخير وهذا الشر ؟

وأسكت ، وأنظر إلى ملابسه فأجدها خيرا من ملابسى ، وإلى صحته فأجدها خيرا من صحتى . ودخله قدر دخلى ، فماذا به ؟

وفى نهاية سنة ١٩٤١ جاء عثمان أفندى إلى القهوة مساء الجمعة وهو يلعن ويسب ، ويكرر حكاية الزفت والقطران باستمرار وإصرار .

وانهزم فى عدة أدوار فى الشطرنج فى هذه الليلة .. وكان يلعب بخبث وينهزم فجأة ، ويدعو على الأستاذ بسيونى بخراب البيت كلما قام عن اللعب .

وأخيرا قبل انصرافنا من القهوة أعلن فجأة : « أنه تركها »

— ما هذه التى تركتها يا أستاذ ؟

— الوظيفة ..

— الوظيفة ؟

واختلفنا ونحن فى الطريق ، ووقفنا كثيرا فى ميدان السيدة نناقش الموضوع — فقد كنا كلنا موظفين — وحاولنا أن نصل إلى النتيجة .. هل هو مخطئ أو مصيب ؟

واتفق الجبناء على أنها مصيبة ، وأعلن الشجعان أنه عين الصواب .

لكن ماذا ستعمل يا عثمان أفندى ؟

ــ الدنيا حرب .. وقد دبرت بضعة مئات من الجنيهات من مالى ومال زوجتى لأفتح مكتبا اسمه « شركة .. » للنقل لعموم القطر .

وابتدأوا يعلقون :

ــ عرفت باب الغنى ..

ــ مغامرة ..

ــ أرزاق ..

ــ إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه ..

ــ برافو ..

ــ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ..

ــ هناك خطر واحد فيما إذا لو توقفت الحرب فجأة ..

ــ لا .. الخطر هو فى أن « رأس ماله » يتحرك ذات اليمين وذات الشمال على الطريق نحو الجنوب ونحو الشمال ..

« ها .. ها .. ها » .. وضحكنا ..

وانقطعت أخبار عثمان أفندى فلم نعد نراه ما يقرب من عام ، ثم هلّ علينا فجأة فكبّر الجرسون وهلّل .. وتلفتنا ونحن نلعب الشطرنج فإذا عثمان أفندى داخل وعليه علامات العز ، وله شارب طويل وهيئة تدل على أن فى جيبه « محفظة » .

ــ يا سلام .. كيف الحال يا سيد عثمان ؟

فابتسم فى وقار وهز رأسه بنوع من الكبرياء ، وقال وهو يجلس على كرسى :

ــ زفت أيضا .

ورنّت ضحكاتنا فى صخب ودبدب بعضنا برجله على الأرض ،

وطلب عثمان أفندى شيشة ، وأخذ دوره فى الشطرنج ، وهزم ، وقام يدعو بخراب البيت على من .. على الأستاذ بسيونى أيضا .

— لماذا يا رجل ؟ لقد تركت الوظيفة وانقضى الأمر ، وفتح الله عليك بسبب ذلك .

— ها .. ها .. أنت لا تفهم ..لقد وجدت « أستاذ بسيونى » جديدا فى السوق بعيدا عن الوظيفة ، أعوذ بالله ، فى حياتى دائما « أستاذ بسيونى » .

— أى .. إذن فأنت تطلق هذا الاسم على كل منافس لك ؟

— تمام ..

— هل تخلو الدنيا من المنافسين ؟

— لا أعرف .

— طبعا فأنت تريدها لك وحدك ، وهذا مستحيل .

— زفت ..

— طبعا لأنك تريدها « لبنا » خالصا وعلى طول الخط ، وهذا مستحيل .

— لقد تركنا الوظائف والفهم والتفكير ، فدعونا من هذا ..

— حسن .. أتريد أن تلعب ؟

— لا .. سلام عليكم .

وردت أصوات مشتركة فى نبرات مختلفة :

— وعليكم السلام ورحمة الله يا عم عثمان ..

ومضى على ذلك خمس سنوات ، وكدت أنسى هذا الشخص فى صوره المختلفة . كدت أنسى عثمان أفندى فى بدلة الموظف ، وأنسى السيد

عثمان فى أبهة التاجر ، حتى جلست ذات مرة فى إحدى المركبات العامة فإذا بى أجد إلى جانبى وجها ، عرفت فيه ملامح قديمة ، لكن دلالات السن كانت بادية عليه . وترددت فى أن أكلمه ..، وأخيرا عرفته تماما بأثر جرح خلف أذنه ، وكانت إلى ناحيتى لحسن الحظ .. وقلت له بحركة آلية صرف كما يقول كل الناس :

ـــ أهلا .. الأستاذ عثمان .. كيف الحال ؟

فإذا به يقول بلهجة حقيقية تحمل طعم المأساة أصدق بكثير مما كنت أسمعه قديما :

ـــ زفت .. لكن .. الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله ..

وأخرج من جيبه منديلا أبيض غير نظيف ولا مكوى، ومسح به عرقا قليلا .. ولم يخرج كلامنا عن النطاق العادى ، وأخيرا نزلنا معا لأن الترام وصل آخر الخط .. ونظرت فى عينيه فإذا فيهما كلام ، وانتحينا ناحية على مقربة من رجل ينادى على ترمس بصوت رائق ونبرة سعيدة ، ويبل ريق الناس على الطريق العام بقلل على عربته فى أفواهها نعناع أخضر ، فقلت له :

ـــ ما القصة ؟

ـــ القصة ؟.. كسبت كثيرا جدا .

قلت بحماسة :

ـــ عظيم ..

فقال بانكسار شديد :

ـــ وخسرت كل ما كسبت ..

وكان ذلك يبدو عليه دون أن يقول ، عليه بدلة رمادية أسوأ من التى

كان يسب فيها أجداد الأستاذ بسيونى أيام كان موظفا . وسألته :

ـــ لكن لماذا جرى هذا لك ؟

ـــ آه .. سألتنى ، عرفت أخيرا أن هناك فرقا يا سيدى بين الطموح والحسد ، وفرقا يا سيدى بين البلادة والقناعة ، كنت أرى أن كل ذى نعمة ليس أهلا لها ، ولا أرى النعمة إلا فى أيدى النـاس ، لذلك .. تعبت ..، ولما كان « الغنى » شيئا لا نهاية له فإن متاعبى كانت لا نهاية لها ..

قلت مجاملا :

ـــ لا .. أنت تظلم نفسك ، ليس الأمر معقدا إلى هذا الحد .

ـــ أنت تجاملنى . لا ، لقد رأيت ملامح نفسى جيدا ، بعد أن عملت مقاولا وأكلت إحدى المناقصات كل الذى جمعته فى زمن الحرب .. لقد رجعت من أول الخط .. ثانيا ..

ولم أجد ما أقوله ، فمددت له كفى بإشفاق وأنا أقول :

ـــ دعنا نراك على القهوة ، لا زلنا نذهب إلى هناك كل ليلة جمعة ، تعال .. سرّ عن نفسك ، إن مرحنا لم يفارقنا بعد ، هناك ننسى الهموم يا صديقى .. لا تنس أن تجىء ..

فقال وهو يصافحنى :

ـــ سأحاول

ـــ وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

فأشار إلى الترام العائد :

ـــ سأعود إلى أول الخط .. مرة أخرى .. لقد ركبت خطأ فذهبت إلى غير مقصدى ، سأعود من جديد ، سلام عليكم ..

ونظرت إلى ظهره فرأيت بين كتفيه آثارا من العرق ، ورقعة على البدلة الرمادية التى تشبه بدلة الوظيفة القديمة ..

سحابة صيف

كان الصيف فى أخرياته يوم عزمت على السفر إلى الإسكندرية .. وكنت مشتاقا يومئذ إلى الخلاء لأننى كنت ضائعا بنفسى .

كان هناك كثير من المشاكل والمنازعات تخيم على جو أسرتى ، منها أن بعض السندات التى أملكها تدهورت أسعارها فى السوق ، وأن سوء هضم شديد حرمنى لذة الطعام ولذة النوم وجعلنى أحسب ألف حساب لكل لقمة وكل ضجعة .. وأن أختى اختلفت مع زوجها فطلقها وعادت إلى البيت فى يدها ولد وعلى كتفها بنت وفى بطنها جنين ، وأن أمى ابتدأت تشعر بانهيار عصبى وتبكى لسوء بختها . وكان أبى فى عداد الموتى منذ كنت ألعب بالكرة فى الحارة خالى الذهن من النتائج التى تعقب تغيب الآباء .

لذلك كله وجدت نفسى مشتاقا إلى الخلاء ، وكانت جدران المبانى فى القاهرة كأنها تصدم نظرى وتسد على طريق التنفس.. فحننت إلى الأفق الواسع والأماكن غير المزحومة ، وإلى التقائى مع نفسى وجها لوجه وأنا جالس على إحدى صخور الشاطئ .

ويوم نزلت الإسكندرية كانت ريح الخريف تهب عليها بنشاط .. كانت كأنها تعبر البحر أفواجا لتحمل المصطافين على المظلات والرحيل إلى الجنوب مرة أخرى .

وكتمت فرحة خامرتنى حين رأيت المدينة على هذه الحال . استطعت أن أحصل بسهولة على غرفة بسرير واحد فى لوكاندة متوسطة الأجر . حسبت المبلغ الذى استصحبته فرأيت أنه يكفى عشرة أيام ، فحمدت

الله لأن عشرة أيام فى رحلة موفقة أجدى على الصحة والروح من شهرين تتخللهما المتاعب .

وفى صباح هذا اليوم تأخرت فى حجرتى قليلا فلم أخرج كعادتى ، مع أننى نمت فى الليلة الماضية نوما هادئا جدا . ونمت بعد العشاء ولم يرقد الأكل على قلبى ولم تتخلل ليلتى أحلام ثقيلة .

فى هذا الصباح الذى أحدثك عنه أحسست راحة مسترخية ، ولذة فى التمدد ، وإقبالا على قراءة قصة كنت اشتريتها بالأمس من بائع متجول ولم أقرأ فيها حرفا .

فبقيت متمددا فى الفراش وسحبت الكتاب من الوسادة وضغطت على زر الجرس فانفتح الباب فى اللحظة التى كنت أقرأ فيها كلمة « الفصل الأول » المكتوبة بأحرف فارسية جميلة ، قلت للخادم بعد أن أطل بوجهه النوبى الوسيم الملامح :

— أريد أن أتناول إفطارى هنا ، ولا تنس الشاى من فضلك .

وارتد الباب واسترسلت فى القراءة ، ولم تمض دقائق لعلها كانت خمسا حتى دق الباب على بعنف غير عادى ، وأطل الخادم مرة أخرى بوجهه الوسيم الملامح وقال بسرعة :

— القاهرة تطلبك بالتليفون .

وترك الباب مفتوحا وانصرف .

وخرجت فى ملابس نومى وفى رجلى شبشب أجره إلى حيث التليفون . ولم أكد أصل إلى هناك حتى رأيت سيدة تجرى فى أعقابى وعليها روب وفى رجلها حذاء . كان صوت كعبه على الأرض ينبئ عن مدى سرعتها ، ولم آبه لها بالطبع حتى التقينا هناك . وفى اللحظة التى رفعت فيها

السماعة وبدأت أقول « ألو » كانت هى تتساءل عمن طلب من القاهرة .

وكان هناك لبس فقد استدعى بعض الخدم نزيل الحجرة نمرة « ٤٠ » واستدعى بعضهم نزيل نمرة « ٤١ » ، ولعل السر فى ذلك راجع إلى خطأ الخواجة فى إملاء الرقم أو فى تردده بين الرقمين .

وكانت تجمع أطراف الروب على جسمها بفتنة وأنا ما أزال فى انتظار إتمام المكالمة ، حتى إذا ما تيقنت أننى أنا المقصود ابتسمت فى شىء من الخجل وخيبة الأمل معا قبل أن تلقى على نفسها نظرة فى المرآة المعلقة فى الحائط المقابل ، وانصرفت لشأنها .

واطمأننت على الأحوال فى القاهرة ، وبادلت الذين اتصلوا بى بعض إرشادات وتمنيات ، ثم رجعت إلى غرفتى وجعلت أقطع الوقت بالقراءة حتى جاء الطعام .

* * *

فى عصر اليوم نفسه ذهبت إلى الكازينو المعتاد الذى كنت أقضى فيه ساعات طويلة ، كان الجو فى هذا اليوم أميل إلى البرودة حتى أن معظم النوافذ الزجاجية فى مقدمة المكان كانت مقفلة تماما ، وكان البحر ثائرا يصنع بأمواجه كهوفا ومغارات وتلالا من الماء ، ورغوة الحركة تطفو إلى السطح كأنها حليب أبيض .

وجلست فى الصفوف الأولى وطلبت فنجانا من القهوة ، ولم يكن المكان مزدحما فتخيلت أننى أتنفس بسهولة ، وألقيت بخواطرى إلى البحر .. إلى العالم المائى العظيم العميق المجهول الذى شهد بدء الخليقة أيام كانت ظلمة وماء فحسب ، ثم شهد البواخر والغواصات .. وفتحت القصة بشرود لأكملها ورشفت رشفة من القهوة ، واستأثرت حوادثها

بانتباهى على الرغم من أن امرأتين يونانيتين إحداهما صبية والأخرى عجوز كانتا تتناقشان بصوت عال حول موضوع لا أعرف معناه .. ومضت فترة من الوقت لست أدرى قدرها لأن موسيقى البحر الصاخبة فى هذه الفترة كانت متمشية مع الوقائع التى أقرأها كما تتمشى الموسيقى التصويرية مع حوادث الشاشة .

غير أنى أفقت على صوت يخاطب « الجرسون » ويقول له : خشاف من فضلك .. أرجو أن تسرع » .

وتذكرت الصوت وكان قريبا منى ، وحين نظرت لم أر وجه صاحبته لأنه فى هذه اللحظة كان قد اختفى خلال جريدة يومية فلم يتح لى إلا أن أرى ذوائب شعرها من فوق .

بيد أنى كنت واثقا من أنها جارتى فى الفندق ، التى قابلتها فى هذا الصباح عند التليفون ، وكانت وحدها وكان وجهها لا يزال مدفونا بين صفحتين من الجريدة . فطويت قصتى ووضعتها على المنضدة ، وجلست أنظر ..

فظهر الوجه فجأة فصح تخمينى ..

وكان البعد بيننا غير كبير فأومأت لها بالتحية ، ثم انصرف كل منا إلى ما كان فيه غير أن الطمأنينة لم تعد تظللنا . كنت قلقا وأحسست أنها قلقة.. وهممت أن أتقدم فأجلس إلى منضدتها وأبادلها الحديث لكننى عدت فترددت .. أليس من الجائز أن يكون زوجها فى الطريق إلى الكازينو بعد أن سبقته ، فهى متزوجة وخاتم الزواج فى يسراها ؟ وأليس من الجائز أيضا أن تعتبر عملى هذا إقداما جريئا فأفتح على نفسى به باب الملامة ، وأنا اليوم شاب قد جاوز الثلاثين وينبغى أن تتسم أعمالى بطابع

غير طائش ؟!.

ونظرت إلى البحر وكان فوارا ، وعدت بعد شرودى ففتحت الكتاب .. وكانت أول كلمة وقع عليها بصرى هى كلمة « اللقاء » . ولم أسترسل طويلا فى القراءة لأننى أحسست قلقلة أحد الكراسى حين قامت الحسناء وفتحت نافذة زجاجية تطل على الماء . وتدفق الهواء كأنه بربخ وكان يحمل رشاشا لا يحتمل فى بعض هباته . وتعذر عليها أن تقرأ وأن تضبط وضع شعرها على رأسها ، فابتسمت ابتسامة من أخلف ظنه ، وقامت من جديد لتقفل الشباك ولكن يديها الطريتين لم تقدرا على ذلك ، وقبل أن تصفق ليحضر الجرسون كنت أنا بجانبها أعالج إقفال النافذة ، فشكرتنى ، وأومأت إلىّ بالجلوس فى اللحظة التى كانت تستلقى فيها على مقعد مقابل .

* * *

وطلبت أنا خشافا لأدفع حساب الخشافين .

وألقيت نظرة على الصفحة الأولى من الجريدة التى على المنضدة ، فقد كنت لا أقرأ الصحف حتى لا تقع عينى على سوق الأوراق المالية فيها .. وألقيت نظرة على عنوان الكتاب الذى وضعته على المنضدة . ثم درج بيننا الحديث .

لم يكن عندهم وقت لقضاء الصيف كله أو بعضه على أحد الشواطئ فى هذا العام ، لولا أن حادثا هاما دفعهم إلى الفرار بهمومهم من العاصمة .

فقلت بينى وبين نفسى : ولو زود الله البحر بالقدرة الكافية على ابتلاع هموم الناس ، فلماذا يعانى المقيمون على شواطئه ليالى الهموم ؟

وجعلت أتفرس ملامحها الصغيرة .. كان كل شيء فى وجهها قد خلق بحساب إلا شعرها الغزير المنفوش من آثار معركة النسيم . وزمت شفتيها فى شبه أسفي وهى تفسر مصدر همومهن فى هذه القصة : إن زوجها فقد ابنه الشاب فى حادث .. حادث أليم .. وكان طالبا فى الجامعة .

فنظرت إلى فستانها الأحمر ذى الزهور البيضاء ، فأجابت كأنها ترد على استفهامى :

ـ « ابنه .. من امرأة أخرى ! »

وأدنت ملعقة الخشاف الصغيرة من فمها الذى لا يكاد يسعها ، لأنه كان فى ضيق الخاتم .. على حين سرحت تجاه ولده .. حتى يلبس السواد ! واستحوذت على أفكارى مرة أخرى حين استطردت :

ـ لقد تأخر كثيرا فى العاصمة .. تأخر أكثر مما كنت أتوقع .. لذلك كنت ترانى قلقة وقت الصباح ساعة طلبت خطاً لأرد على « الترنك » .

سألتها : وهل ستقيمون هنا طويلا ؟

فأجابت : « ذلك الأمر ستقرره النقود وليس هناك من يشاركها الرأى فيه ! »

وضحكنا ، وأشارت بسبابتها الطويلة البيضاء إلى حادثة فى صدر الصحيفة شغلت الرأى العام فى ذلك الوقت ، حتى أفاق الرأى العام نفسه وجعل يتساءل : لماذا هو مشغول هكذا بهذا الحادث ، مع أنه ليس نادر الوقوع ؟ وكان الحادث خيانة زوجية انتهت بقتل الزوجة بيد العشيق .. كأن الجريمة والقصاص وكلا إلى شخص واحد .

وقرأت الحادثة بسرعة وعلامات اشمئزاز بادية على وجهى ، حتى إذا ما فرغت رأيت عينيها تطلبان الحكم فى لهفة على موقف العشيقين . فلم

أتكلم ، فقالت باشمئزاز يخالطه رعب :

— شيء فظيع .

— أى شيء تقصدين ؟ الحادث محتو على أشياء كثيرة .

فأجابت وهى تعض على أسنانها :

— القتل .

فهززت رأسي وكأنني لا أوافق على شيء لكن عينيها ظلتا تطلبان رأيى فى خبث وإصرار ، فقلت :

— هى الزوجة . .

— والزوج .

— لا بالطبع . . لكن كل القرائن تدل على أنه مهمل . اعقلها وتوكل يا أستاذ ، أما الفوضى فإنها تؤدى إلى . .

— إلى الفوضى . . وليس هناك مصير أسوأ من الفوضى نفسها . .

لكنى عدت فقلت مغالطا أو ممتحنا :

— لقد نسينا شيئا مهما يا سيدتى ، هو أن القلوب كائنات لا يمكن أن نعقلها ثم نتوكل . لم يستطع إنسان على وجه الأرض أن يوجه قلبه . . القلوب هى التى توجه إلا إذا كانت السيارة هى التى توجه عجلة القيادة .

فاستغرقت فى ضحكة مرحة رج بها المكان الخالى ، حتى جاء الجرسون وجعل يجمع الأطباق الفارغة وعلى وجهه ابتسامة مفهومة .

ولمحنا على الأفق بعد قليل موكب الغروب ، فنظرت إلى ساعة معصمها واستأذنت ، وإن عينيها تقولان : أود أن أراك ، وإلى اللقاء .

وانصرفت وبقيت وحدى . .

وفى آخر السهرة دخلت الحجرة وأشعلت النور .

ولأول مرة وأنا أستلقى على فراشى لاحظت أن بين الغرفتين بابا وسطا .. مقفلا مصادرا . وأن مرآة الزينة فى حجرتى تسد هذا الباب .

وجعلت أتخيل وما أكثر الخيالات فى ليالى الوحدة ، خصوصا عندما يكون هناك طارق جديد يدق باب القلب ..

تخيلتها راقدة وحدها فى ثوب أبيض شفاف كأنه من لعاب الشمس ، تحلم .. وتحلم ، أو جالسة تقرأ ، أو مستعيدة كلامنا وقت العصر . وأنها وحدها .

ولم أنم بل لم أحس بوادر نوم قط ، فعللت هذا بعلل كثيرة ،وخيل إلى بعد قليل أنى أسمع حركتها فى الحجرة .. وقع أقدام ونقل كرسى وأشياء مبهمة . فنقرت بيدى على باب الوسط بحركة كأنها غير مقصودة ، فإذا بها ترد النقرة بمثل الحركة . وعدت فعادت ، وإذا بى أسمعها تقول « ألم تنم حتى الآن ؟ نم ! »

وخيل إلىّ أن النوم سيمتثل لأمرها ويجىء ، لأن المخدر سرى فى أعصابى من همسها فى الليل :

— نم يا عزيزى .

— حتى تنامى .

— سنلتقى غدا ؟

— ربما .

وهممت أن أقول لها أكثر من ذلك ، وأن أطلب منها أن ينتقل أحدنا إلى الآخر ، لكن السكون الذى ظلل المكان كان ينم عن أقل حركة ..

وفى اليوم التالى تكلمنا كثيرا ، وبدا لى أننا على أبواب حب عنيف ..

(حلم آخر الليل)

وشكت لى أن زوجها لم يطلبها من القاهرة ، وأن قلقا يخامر قلبها عليه .

ورسمنا خططا للمستقبل ، فيها أنها ستكتب إلى أحد تطلبنى بالتليفون فى عملى بعد انقضاء أيامنا فى المصيف .. ونسينا معا الحوادث التى تكلمنا عنها أمس ، والتى لا تزال الصحف تفيض فى نشر أسرارها ، لأن وقوع الحوادث لا يعنى عدم تكرارها ، والعظة التى تحملها الحادثة كالترياق الذى تحمله السموم ، وهل تستحيل السموم فى عصر من العصور إلى ترياق خالص ؟

* * *

عدت مساء هذه الليلة بعد الثانية عشرة وكل شىء فى جناحنا نائم ، واثنان من الخدم جالسان يشربان الشاى . غريب !

وألقيت نظرة إلى شراعة الحجرة المجاورة وأنا فى الطريق ، فوجدت النور ساطعا فيها .. إنها لا تزال يقظة .

وأتيت عدة حركات وأنا أخلع ثيابى ، وغمغمت بغناء خافت وأنا أستلقى على الفراش ، ولكن حركة واحدة لم تأت من داخل حجرتها .

وبعد ربع ساعة تكرر الموقف .. سمعت دقة على باب الوسط .. دقة غير مقصودة كأنها من يد بسطها صاحبها وهو نائم ، ففعلت مثلما فعل .. ثم انتظمت الدقات ، ثم بدأ الهمس :

— هل كنت نائمة يا عزيزتى ؟

فجاءنى صوت مبحوح يقول :

— نعم .

وقلت بعد ذلك ما لا أذكره الآن ، ولكن لم يكن هناك رد إلا بطرقات منغمة تحاكى دقات البنات على جلدة الطبلة . ثم توقف الدق

فجأة وسمعت جدلا واحتكاكا وتحرشا بين رجل وامرأة ، ثم نزاعا كأنه عراك انتهى بأن سمعتها تقول لزوجها :

— الذى لا شك فيه أن كلا منكما كان يظن أن امرأة وقعت فى الشبكة ، تبا لكم أيها الرجال !

ثم سكن كل شيء وكأنما رجاها ألا تثير ضجة . أرجح أنها انتصرت عليه وأنها كانت نائمة واستيقظت على الطرقات ، وخيل إلى أنهما ناما نوما هادئا فى الوقت الذى ظللت أنا ساهرا أسترجع الماضى وأحسب ألف حساب ، حتى غلبنى النوم .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة حين استيقظت من نومى ، وقرعت الجرس فطلبت الإفطار . وكنت كلما طرق على الخادم باب غرفتى أتوقع أنه سيقول :

— إن شخصا ما يريد مقابلتك .

ومرت ساعة ثم ساعة ، وقارب الوقت أن يكون ظهرا ، وبدأ الحر خانقا لا يكاد يطاق ، فاغتسلت وأخذت فى ارتداء ثيابى قبل الخروج .. وأخيرا سمعت صوت أحد الخدم ينادى على زميله ويقول له :

— عبده .. عبده .. ساعدنى على حمل هذه الحقيبة الثقيلة ، نعم إن نمرة « ٤٠ » خالية منذ الصباح . ألم تعلم ؟

وتنفست الصعداء ، وقصدت إلى الكازينو بعد الغداء فجلست مكان البارحة . وكان البحر فوارا يصنع بمائه تلالا ومغارات ، ويصب على حوافيها الحليب ، والنوافذ الزجاجية فى صدر الكازينو مقفلة جميعا ، واليونانيتان تثرثران فى هدوء ، والعجوز لابسة السواد ، والمنضدة التى شاركتنى الحسناء الجلوس إليها كان عليها رجل فى الخمسين يشير بالقلم فى

حركات توافق همساته ، كأنه يجمع أرقاما ..

والخريف يهيب بالناس أن يرحلوا .

وفى القاهرة ظللت أنتظر بلا فائدة .

وهذا هو الصيف الثانى يقارب على النهاية وفى نيتى أن أقضى فى الإسكندرية أسبوعا واحدا ، فهل سألقاها هناك ؟

وهل سيتحدد صيف كان مثل سحابة الصيف ؟

امرأة ومصباح

فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كله وقد يزيد عليه . ونحن مع ذلك ــ وفى غفلة لذيذة ــ ندفعه مسرورين . والسر فى ذلك هو أن قانون الحياة يسلكنا فى صفها ويربطنا فى الطاحون ونحن لا نشعر .

لم تكن العاصمة الكبيرة ــ مدينة القاهرة ــ تشعر بمأساة هذا البيت الصغير ذى الطبقة الواحدة .. القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .. فى حى قريب من مدافن النصارى وسفح الصحراء وجامع عمرو .

عانى المالك فى اقتناء الأرض التى بناه عليها مشقة تقرب من مشقة الخلق ، فقد ظل يقطع ثمنها من دخله الصغير خمس عشرة سنة ، ثم أحاطها بالسلك ثم بنى فيها بالطين بعض مبان .. ثم زحفت المساكن وتعددت ألوانها وأصبح الحى آهلا بالصبيان والقطط وعلا فيه صراخ الباعة طول النهار وارتفعت فيه أصوات الراديو . فنهض أخيرا ذلك البيت ذو الطبقة الواحدة القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .

وفى يوم من أيام مارس من سنة .. انتقل المجاهد مالك هذا البيت إلى رحمة الله ، وظل وابور الزلط متعطلا يوم وفاته لأنه هو السواق ، واجما كأنه منع من السير فى الجنازة أو حزينا كما يحزن الجواد على فقد الفارس .

وقد استمعت زوجته إلى « تلخيصه » لحياته كما يفعل كثير من الناس قبيل الساعات الأخيرة ، حين يحسون بطرق غير معروفة أنهم سيرحلون:

ــ الحمد لله .. تعبنا كثيرا ، ولكن .. لقد عملنا شيئا ما .. وأنا إذا

رقدت مرتاحا فلأننى وفقت فى أن أجعلكم تملكون هذه الأرض الواسعة .. بقعة تسكنون فيها . الله .. لا أحد يطردكم من بين الحيطان إذا ضاقت بكم الأحوال .. أنت والبنات الثلاث تملكن سكنا .. أما الباقى — وأشار نحو السماء — فله من يدبره ..

ثم سكن إلى الأبد . واهتز البيت ذو الطبقة الواحدة بأربع نسوة تبكى على رجل ، أو تبكى على دخل ، أو تبكى على الدخل والرجل فى وقت واحد .

ثم سكن البكاء واستأنفت الحياة سيرها كما هو طبيعى .

ولاذ النسوة الأربع إلى حجرة بنيت فى السطوح ، وأجر الدور الأرضى لساكن ما لتكفى أجرى البيت مطالب الورثة . وخلعت ملابس الحداد وعادت الابتسامة إلى الأفواه وأصبحت الصلة بين الوارث والموروث متمثلة — فقط — فى الجوافة والبلح والفطير باليسنون الذى يوزع عند « طلعة رجب » .

وتقدم خطيب للبنت الكبرى .. عامل ميكانيكى صحيح سليم يتكلم بثقة ويغمز بعينيه .

وأعلنت العروس موافقتها فى حماسة ، ولو أن المهر قليل وزوج المستقبل يطلب جهازا معينا .

واصطدمت فرحة العذراء بخوف الأرملة من الزمن .. ثم أفهمتها بنتها أنها صاحبة حق ولها مطلق الحرية فى التصرف .. وأن فرحة « العرايس » لا تكمل إلا بالأحمر والأخضر والعطر والكحل وأن من حقها أن تخرج بجهاز .

كانت الأم لا تنشد إلا سعادتها . وأمام إصرارها رأت من الخير أن

تتراجع فأدخلت جارها شريكا فى البيت بمقدار الثلث أو بمقدار ما تملكه الكبرى من الميراث وزيادة قليلة .

وتحول المال بعدئذ إلى مراتب وألحفة ونحاس وصيني وأثاث وغوايش وأشياء أخرى . ثم انتقلت العروس إلى بيتها فى المدينة فأحست الأم ليلتئذ بسعادة فوق الوصف . وربما تفوق سعادتها فى ليلة أقفل عليها الموروث الباب وقال : ها نحن قد صرنا وحدنا .

وكأنما كان السخاء الذى بذلته الأم فى جهاز ابنتها الكبرى إعلانا بلا قصد عن العروسين الباقيتين . فما كادت الوسطى تبلغ حد النضوج حتى تقدم لها أخو العروس السابق .. أخو الميكانيكى . فتى كأنه عود من الخيزران مهنته (ترزى) يرشحه أهل الصنعة ليكون أمير هذه الصنعة .

ولعل بينه وبين البنت الوسطى هوى مدفونا ، لأن حماسة العروس كانت أشد توهجا من حماسة أختها .

ومشى قانونهم طبيعيا كالشروق والغروب .. فذهبت الأم فورا إلى جارها فى البيت وطلبت منه أن يدخل شريكا بالثلثين أو بمقدار ما تملكه الفتاة الوسطى وزيادة ، ثم حولت ببساطة هذا القدر من المال إلى نفس ما حول فى المرة الماضية . وأحست الأم بسعادة أقوى من السعادة الأولى لأن المسألة لم تكن فى نظرها مسألة تزويج بنات فحسب ، بل شعرت كأنها تستر شيئا عاريا .. يعنى عرضا .

وتهامس أهل الحى بأمر هذه الأم ، وقال ناس : إنها محقة . وقال ناس : بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذى خلفه سيئول إلى هذا المال ما بذل فيه حبة عرق ..

على أن هذا كان ـــ على أى حال ـــ مؤهلا قويا لزواج البنت الثالثة .

فما كادت تبلغ حد الإدراك حتى تقدم من يطلب يدها .. كمسارى فى السكة الحديد فى البدلة الصفراء كأنه بدر .. يجلب الزبد والفواكه من الريف الذى يمر به كل يوم ، والدجاج والوز بأثمان زهيدة .

ولم يكن هناك مجال للنقاش فقد تقدمت الأم فى صمت إلى جارها تطلب منه أن يشترى الثلث الثالث .. وفى اللحظة التى وقع فيها عقد البيع وقع عقد إيجار الحجرة العليا . وذرفت الأم دمعة دون أن تدرى ، وعلمت أنها ستسكن وحدها .

* * *

وفى الليلة الأولى أحست بفرحة تخالطها وحشة . وقرض كأنه تحذير لم يتكامل ، لكن لا مجال فيه للإحساس بالندم .

ثم بدأت تشعر بشيء يخوفها .. كأن حادثا كبيرا سيدق عليها باب الغرفة الذى يهزه فى الليل هواء الشتاء . وقالت فى نفسها : هل سيموت زوجى مرة أخرى ؟

واستغرقها بعد ذلك فكر لذيذ .

— آه .. « زينب » فى حضن « محمد » . و« فاطمة » فى حضن « على » . وأخيرا .. « رقية » فى حضن « إسماعيل » ..

كل بنت تحت جناح رجل . هل فى الدنيا أعز من هذا ؟

ممن إذن أخاف ؟

لكنها دمعت فى سكون الليل حين فكرت فى البقية الباقية من عمرها . هل تهددها الحاجة أو المرض ؟ إن حدث هذا فإن مرارة الخاتمة ستستغرق حلاوة البداية وأكثر .

واعتمدت على نفسها منذ ذلك التاريخ وعلى البقية الباقية من نور

عينيها . ومن ماكينة الخياطة كانت تأكل .. حقيقة أن رزقها كان يدخل إليها من ثقب الإبرة لكنه كان يكفيها .. والخبز مشبع جدا لمن يغمسه فى القناعة .

غير أن بنتها الصغرى ـــ وكانت أكثر أخواتها ترددا عليها لأنها لم تخلف بعد ـــ رأت ذات يوم دلائل الفاقة ترفرف على الحجرة ، وحلة نحاس بها بقية طبيخ متجمد لم تأكل منه ، وأمارات تدل على الاحتياج تدرك ولا توصف ، وتعرف حتى ولو تكلم أصحابها عن الرخاء .

فلما استوثقت من أمها أكدت لها أن ظنها مخطئ . وفتحت لها درج الماكينة فرأت فيه جنيهين وعدة قروش . لم تكن فى الحقيقة إلا ملكا لإحدى الزبائن ثمن قماش ستشتريه الخياطة بمعرفتها .

وبكت البنت الصغيرة التى كانت تتردد على أمها دون أختيها اللتين شغلهما الأولاد ، لأنها رأت أمها تخيط الملابس على مصباح الجاز بعينين ضعيفتين وحركة مضطربة تدعو إلى الرثاء وتنذر بأن الزباين سينصرفون عنها . فنحن دائما نحب الأجير القوى ، هل استأجرت مرة حمالا أمنته على حمل متاعك ؟

* * *

وفى صبيحة يوم ما دخلت البنت الصغيرة حجرة أمها .. كان الوقت باكرا والباب غير مغلق من الداخل فانفتح حين دفعته . فرأت مصباح الجاز موضوعا على منضدة الماكينة والأم منكفئة على منضدة الماكينة مستغرقة فى النوم كأنها تلميذ أغفى على حافة الدرج .. وهناك قطعة قماش عالقة بالإبرة وطرفها على الأرض . والمقص تحت قدميها عند المدوس .. وذبالة المصباح تتراقص كأنها تحتضر .

أدركت أن أمها أخذتها سنة من النوم عند الفجر على الأقل ، لأنها كانت تشتغل فى الضوء .. فأحست بألم يحز فى قلبها . وعندما أيقظتها لم تستيقظ ، فقد كانت جثة باردة .

وبكت البنت وأطلت من النافذة على السطح وتفقدت كل شىء . وذكرت أن أمها اشتغلت حتى آخر لحظة فلم يكن هناك دقيقة تفصل بين حياة العمل وبين الموت .

ثم تجمعت البنات حول الأم للمرة الأخيرة .

وعاد البيت من جديد فاهتز كيوم خرج منه الزوج ، ثم انصرف الناس فخيم عليه السكون .

وفى الليل كان الهدوء أقوى وأشد على البيت ذى الطبقة الواحدة .. والحجرة العليا مطفأة النور موصدة الباب لأن ساكنتها باتت فى الخارج .

لكن ..

فى بيوت أخرى ، قال « محمد » لزينب :

ـــ هل اطمأننت على أختان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر . هذا هو حال الدنيا . تعالى قريبا منى ..

فالتصقت به فى صمت ..

وقال « على » لفاطمة :

ـــ هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غليت الطبيخ حتى لا يحمض ؟.. أوه.. ليس فى عينيك بقية للبكاء .. تعالى قريبا منى .

فسحبت عليها الغطاء .

وقال « إسماعيل » لرقية :

ـــ إن خدك ملتهب من اللطم . إنها تنام فى قبرها مرتاحة .. فقد اطمأنت على مصير البنات . أوه .. خدك ملتهب جدا .

وحين مرت أنامل على خدها أحست بنعومة المرهم ..

وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغرقات تماما ..

وفى الصباح الباكر تذكرت كل واحدة منهن شيئا انتفض له قلبها بشدة .

وفى الساعة العاشرة كانت الكبرى قد وصلت إلى حجرة الأم ، وبعد دقيقة تماما وصلت الوسطى .

وجلستا مطرقتين لا تتكلمان . وبعد خمس دقائق كانت الصغرى قد وصلت وبكين قليلا . ثم نظر بعضهن إلى بعض والتقت النظرات أخيرا على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهن :

ـــ هل جئتما من أجل ذلك ؟

فقالت أختاها :

ـــ حتى أنت . هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم .

يريد أن ينساها

قضى سواد ليله وهو يعدّ خفقات قلبه. قضاه يعدّها ويتدبّر معناها تدبّر شاب يدرس مهنة الطب ، ويقف إلى مائدة التشريح ليعمل مشرطه فى جوارح وأعضاء كان يخاف عليها أصحابها هبّة النسيم .

وأخذت أفكاره تتضح كلما خطا الليل نحو الأمام خطوة وخطت الحركة فى المدينة نحو الوراء خطوة عكسية ، حتى لم يعد يسمع جعجعة عربة ولا حفيف سيارة ، وكلها يمرّ من فوق رأسه فتدخل إليه الضوضاء من خلال النوافذ لأنه ساكن فى « بدروم » . وحتى الحركة فى الحجرتين الأخريين المكملتين للشقة سكنت ونامت . وأمسى جوّ « البدروم » مشبعا بالرطوبة أكثر من قبل ، وذلك لأن الليل خطا خطوة جديدة نحو الصباح .

وخفتت الأصوات فى الحجرة الملاصقة التى يسكنها طالبان من طلبة الأزهر ، وحمى بينهما وطيس الجدل قبل أن يناما حول مسألة لا يدرى طالب الطب أفقهية هى أم نحوية ؟

وأخذت أفكاره تتضح تحت رواق الليل حتى لكأنه يلمسها لمسا . واستمع من جديد إلى خفقات قلبه فاسترسل معها وعاش كما تسترسل مع النغم حتى تخال أنك سابح فيه . ثم جعل يسأل نفسه عن عدد خفقاته منذ دبّت فيه الحياة حتى جاوز اليوم سن العشرين ، وإلى أى مدى ستدوم هذه الخفقات ؟ وكم من ملايين الملايين سيبلغ عددها يوم الممات ؟! يا له من عضو نشط يسهر حتى ونحن نيام !

ثم أمسك لأنه انتبه إلى دقّات ساعته من تحت المخدة ، وابتسم حين رأى بين الجهازين تشابها عجيبا .. كلاهما يدقّ !! هذا يدقّ فيجعلنا نحس الوقت لأننا نعيش ، وذاك يدقّ فيجعلنا نحصى الوقت لنعرف كم نعيش !؟

وتخلصت أفكاره من استطرادها الطارئ فعادت إلى ما كانت فيه من قبل . ذكر القلب وخفقات القلب ، فاستحضر صورته كما رآها فى حجرة التشريح ، له أذينان وبطينان ، وأوردة وشرايين ، وأشياء أخرى .. ولكنه وثب وثبة كبرى فخرج من دنيا العلوم إلى دنيا العواطف ، وذكر اليوم الحاسم الفعّال فى علاقته معها ثم بدأ يستعرض القصة .

كان يريد أن ينساها ولو أن كل شيء يذكّره بها . وهذا هو الأسبوع وقد دارت دورته وجاء صباح الخميس ..

إذن فهو لم يرها منذ أسبوع . منذ الخميس الماضى بعد أن أمسى المساء فلقيها فى مسكنها .. وبعد أن قضى معها فترة من الوقت هبط درجات السلم المظلم الدائر وقد صحّ عزمه على ألّا تطالع عيناه معارف وجهها الحلو مرة أخرى ولو أحرقت أوصاله النار . ولم تكن هى تعلم بأنه اتخذ هذا القرار وإلّا كان من الجائز جدا أن تلقى بنفسها من النافذة على مرأى منه حتى تضمن أن يسجّى جسدها بيمينه .

ومرّ الأسبوع كالحا ثقيلا كان فيه أشبه بمن يعيش فى دوامة ، لكنه كان مصرّا على ألّا يرجع خطوة واحدة إلى الوراء لاعتبارات شتّى أهم ما فيها أنه يريد أن يضع نهاية لهذا اللون من الحب ، وأنه جعل رجولته فى كفة وجعل السلوان فى كفة أخرى ، وأنه أراد أن يضع رجولته كذلك فى بوتقة تجربة عالية الحرارة ليستيقن من أنها ستثبت على الصهر .

وهكذا مرّ الأسبوع . وخرج فى صباح يوم الخميس آخذا سمته إلى الكلية ، وكان منشرح الصدر نوعا ما لأنه لم يحس ضعفا خلال المدة التى انقضت وإن قاست نفسه ضروبا من الحنين وألوانا من الأفكار .

والتفّ الطلبة حول منضدة التشريح فى الغرفة وبدأوا يستلّون أسلحتهم ليعملوها فى جوارح خاف عليها أصحابها هبّة النسيم ، وكان بين أيديهم فى هذه الحصة .. قلب !

وقلّما يسأل الطبيب وهو يعمل المبضع فى هذا العضو العظيم ، وعاء العواطف ، قلّما يتساءل : ترى قلب من هذا ؟ وإن تساءل مرة أو مرتين فغالبا ما تتخلف الثالثة . وإذا اقتنعت بمنطقى فإنك ستسلّم باستحالة أن يسأل الطبيب نفسه قائلا : أقلب امرأة هذا ، أم قلب رجل ؟ وبعد ذلك يغمد فى القلب السلاح بنفسية من يغمد المدية فى جلدة البطيخ . وهذا هو ما يجرى فى حجرات التشريح .

لكن الذى حدث صباح يوم الخميس كان غير ذلك ، لأن أحد الطلبة ممّن التفّوا حول المنضدة تساءل بعد أن علت شفتيه ابتسامة خبيثة : ترى قلب من هذا ؟! فهمس فى أذنه جاره الأيمن وكان كثير المرح يقول له : « ولا القلب إلّا أنه يتقلّب » هذا هو كل ما تخلّف فى ذهنى من رواسب المدرسة الثانوية .. هل تعرف صدر هذا البيت ؟.. ما لنا ولصاحب هذا القلب أيها الزميل ؟ فقال الأول : حسبتك تعرف صاحبه . فابتسم الجار الأيسر ، وهو صاحب القصة ، ثم مال إليهما مستغربا موضوع الحديث فما كان من الطالب الأوسط إلّا أن همس : إننى أعرف صاحب هذا القلب !!

ثم انقطع الحديث بعد ذلك .. وبدأ الطب يسيطر على الحقوق التى

فرضتها الحياة للجسم ، والقدسية التى فرضها الموت للأعضاء ، فأعملت فى القلب المشارط وحمى وطيس الدرس فنسى المتسائلون ما كانوا بصدده من قول ، لعلّ بعضه كان نفحة شاعرية ، وبعضه الآخر كان دعابة من دعابات الشباب .

لكن الطالب الأوسط ما لبث أن أعلن بعد انتهاء الدرس على مسمع من المجموع أنه يعرف صاحب هذا القلب . فأقبلوا عليه يستفسرون فى فضول مختلف الدرجات ، فقال وهو يضحك ملء شدقيه : إنه قلبها .. قلب تلكم الحسناء .. حسناء حارة البغايا .. فى درب الخوخة نمرة ٥ .

هل فيكم من يعرف اسمها ؟.. كان اسمها جمالات !

فضحك بعضهم ضحكة ماجنة منغّمة : « هئ .. هئ .. ليرحمها الله ! »

كان يجاهد نفسه لينساها ولكن الأقدار أراحته من هذا العناء .

لقيها يوم الخميس وودعها دون أن تشعر بوداعه ، ثم حمد لنفسه فى الخميس التالى أنه ثبت على التجربة وهو لا يدرى أن يدا أقوى من كل شىء ستحول بينه وبينها إلى مدى لا يعلم غايته إلّا الله !!

وقضى سواد ليله وهو يحصى خفقات قلبه فى ظلال السكون ، ويسترجع صورة قلبها تحت وميض النصال ، فخيّل إليه أنه كان يخفق بحبه حتى وهو فى هذه الحالة ، فاستفظع الأمر وكاد يصرخ فى ظلام الغرفة .. ثم أمسك ليسأل نفسه : أين موضع الحب من قلوب الناس ؟ وهل تعثر فيه أطراف المباضع على موائد التشريح ؟ ألا ليتنى أعلم ؟

وهمّ بأن يصرخ مرة أخرى ولكن شخير الشيخ « أبو المعاطى » فى الحجرة الملاصقة انتهى إلى سمعه فنحّاه عن تيار أفكاره شيئا ما ، حين قلّب

حياة جاره فى نواحى فكره وتمنى أن تتاح له هو مثل هذه الحياة .. الحياة الباردة التى لا يصرخ فى نواحيها شىء .

لكن جمالات ، حسناء درب خوخة ، ولجت أبواب فكره مرة أخرى : إنهم لا يعلمون أنه الشخص الوحيد الذى وفّق فالتقى بالشخصية الشريفة فى جسدها المبتذل حتى أصبح هو فى حياتها أشبه بالواحة الوحيدة فى صحراء دنياها الواسعة الجدبية .

دخل حجرتها أول مرة وهو متأبط ذراع الشيطان ، فدخلا يقهقهان ثم خرجا يقهقهان . وتكررت التجربة ، لكن طالب الطب خرج فى المرة الثالثة وهو حزين سادر حين اكتشف بين أنقاض الجسم وخرائب المادة روحا جميلا شفافا اندفن تحت هذا الركام .

وأخذت العلاقة بينهما تجنح نحو الصداقة رويدا رويدا . واختلط الزيت بالزئبق على الرغم من كل شىء ، لأن طالب الطب كان يعتذر لنفسه كلما دفعه إليها قلبه متعللا بأن الزيت والزئبق من المحال أن يمتزجا ، وسيبقى كل منهما منفصلا عن صاحبه وإن طالت مدة التجاور .

وكان يلقى من أمره عسرا عند كل افتراق لأنها كانت تتشبث به تشبث الغريق بالفلين وتكاد تتعلق بأذياله كما تتعلق الهرة الأنيسة .

لكنه قرر فجأة ألا يلقاها ..

وكان ذلك عقب تقديم هدية إليها . ولم يكن هو من اليسار بحيث يستطيع أن يقدم إليها كثيرا ، ولم تكن هى من الاستغلال بحيث تطلب منه أى شىء . فأحس خجلا وحسرة حين تخيل أنه يقتضيها ثمن حنانه القلبى بطريقة « المقاصة » فكأنه يدفع ثمن العطف متعة .. ومن أجل ذلك قدم إليها هدية !!

كان خاتما جميلا فيه ثلاث حبات من الماس ألبسها إيّاه وهما مستغرقان فى الحديث ، فلما انتبهت إلى ما فعل شهقت سائلة مبهوتة وإن أشرق وجهها النحيف بنور فرح ضئيل قالت : « أهو لى ؟.. هل أستطيع أن أرفضه ؟!.. أخشى أن أغضبك .. أو أن أرهقك » .

ثم تبين له بعد ذلك أنه فعل أمرا منكرا ، لأن البون شاسع بين كف أمه والكف التى تختمت به الآن . وقامت فى ذهنه قضية معقدة لأن الموازنة بين المرأتين فى هذه اللحظة جعلته يضع جمالات فى نفس المكان الذى يضعها فيه كل الرجال . وكاد ينكر نفسها العظيمة التى طمرت تحت أنقاض الجسد بفعل أيدى الناس !!

ثم لجّ به الفكر حتى وضع المرأتين متجاورتين فرأى أمه الريفية وعلى رأسها طرحة سوداء تستدير مع استدارة الوجه وهى راكعة عند المدخل على سجادة من الحصير . ثم رأى جمالات وقد تناثر شعرها فى فوضى مثيرة وقد تكون مريبة ، فهى امرأة تتزين فى كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة ، وتعرف دخلها بعد إحصاء عدد مرات الزينة !!

وبعد .. فهذا الخاتم يحمل ذكريات عزيزة . حملته أمه إياه ليصلح بعض فصوصه التى انخلعت من مكانها ثم يعيده مع من يراه أهلا لحمل الأمانة .. لكنه خان الأمانة ، وسيقف بعد ذلك موقف الكاذبين حين يخبر أمه فى رسالة أن الخاتم قد فقد وأنه حزين يشعر بالإثم ويطلب المغفرة .

* * *

وانقضى أسبوع على هذا الحادث ، ولعلها كانت تنتظره فى كل مساء لكنه تخلف ثم وقعت الكارثة وشربت حسناء درب الخوخة السم فى كأس من الشراب دسّه لها خليل ربما كانت قد عفته بضغطها على قلبه أو ضغطها

على جيبه أو ضغطها عليهما معا ، ونقلت إلى المستشفى وغسلت معدتها لتخلص من السم ، ولكن الماء تسرب إلى صدر شقى فأشقى وخدع فخدع ، فالتهبت رئتاها كأنما شبّ فيهما حريق .. وركبها الهذيان وهو واثق أنه كان موضوع هذيانها .

وها هوذا الليلة يحصى دقات قلبه ويتحسس فى ظلمة الزمن يوما سيكفّ فيه عن الخفقان لأن موتها ذكّره بالموت .

ثم مال ميزان المعركة أخيرا وانتصرت الحياة فبدأ يفكر فى طريقة السلوان ، ونزل من فراشه وتحسس زر النور فأضاء الغرفة ..

وجلس على مكتبه وأمسك القلم كأنما أمسكه ليكتب شيئا ..

لكن التفاتة حانت منه إلى خزانة الكتب فرأى على حافتها العليا شيئا تعلّق به بصره ..

ارتاح قليلا وأحس أنه إن قلق يستطيع أن يجد هنا قولا للهدوء !!

كانت عيناه عالقتين بجمجمة وضعت على أعلى الخزانة ، فرأى عظمها الخاوى نهاية لكل رأس ، والعينين بركتين ، والفم تجويفا قبيحا ، والأنف مدخلا يوحى بالفناء ، فقال فى نفسه : هيه .. إنها هى الأخرى جمجمة امرأة .. لأنها صغيرة الحجم ..

وابتسم فى حسرة وهز كتفه برفق ثم قال : جائز .. جائز أنها كانت مثل جمالات . من يدرى ؟

ثم أطفأ النور وتحسس طريقه إلى الفراش مرة أخرى .

زوجة مثلها

لم ير فى حياته امرأة كثيرة الغفران ، متناسية لأخطاء زوجها مثل هذه الزوجة .. كانت على حدة طبعها وفرط رقتها وحساسيتها تؤثر أن تكون مهزومة فى معظم المعارك ، وترى أن بعض الهزائم فى حياة الزوجين أعظم فخارا من أكاليل النصر . فبعد كثير من الخلافات كانت تنزوى فى ركن الدار تذرف الدمع وتعد الحصى ، أو تعبث بعود فى تراب الأرض ، حتى إذا ما سألها ابنها الصبى — وهو أعز شىء عليها — عما عسى أن يبكيها ، ولدت على فمها ابتسامة بددت كل هذه الغيوم ، ثم لا تزيد أمه على أن تربت كتفه أو تلثم خده ، وهى تقول بصوتها المخنوق : « لا شىء .. لا شىء .. لا تتعجل على حمل الهموم فأنت لا تزال صغيرا » .

لكن هذا الصغير كان يؤمن بينه وبين نفسه أن قلبه قادر على حمل آلام أمه ، إن لم تكن كلها فهو قادر على حمل شىء منها . وعندما كبر أدرك أن طاقة القلوب لا تتفاوت أبدا ، وإنما تتفاوت طاقة العقول فحسب . بل ربما كان قلب الصبى أقدر على اختزان المساءة والمسرة منه عندما يصبح رجلا عاقلا . ولو كانت أمه تدرك ذلك فى هذه الفترةالتى وقعت فيها حوادث القصة ، لاتخذت من قلبه مخزنا تودع فيه همومها .

لكن .. لعلها كانت تخاف عليه .. فقد كانت تراه يبكى فى صمت عندما كانت تنكت الثرى بالعود أو تعد الحصى من الجرن ، فإذا ما قست عليه بكلمة خوفا على صباه الطرى فر من الدار إلى الخلاء حيث يلوذ بظل إحدى الأشجار ، ينسى همه بجمع الصمغ ، أو مطاردة الكائنات الصغيرة

التى تحوم حول كل نبت .

أما أبوه فكان رجلا ضخم الجثة ، تبدو عليه القوة والمهابة . شعرات شاربه الأسود المسترخى كأنها مصنوعة من الأسلاك لم تتخللها شعرة بيضاء .. وكان أكولا يفاخر بأنه أكول ، وشديد البطش بامرأته ويفاخر بأنه يفعل ذلك ، وعندما كان يصرخ فى وجهها لسبب ما كان الصبى يراها وهى تكاد تذوب مثلما تفعل قطعة الزبد إذا وضعت على النار . وكان يخاصمها كثيرا ، فإذا دخل الدار وأراد شيئا طلبه وكأنه يوجه الأمر إلى الهواء ، أو إلى « جنى » من شياطين سليمان فيقول مثلا : « الغدا .. الملابس النظيفة .. شال عمامة آخر غير هذا .. » فتسارع الزوجة إلى إجابة هذا المطلب فى صمت مطبق .. وكأنها آلة .

ولما دخل عليها أخوها ذات يوم ورأى آثار الذل على وجهها ، ثار ثورة كبيرة واتهمها بأنها لا كرامة لها . فسألته وقد شحب لونها :

ـــ ولماذا أنا فاقدة الكرامة ؟

ـــ لأنك تعاشرين مثل هذا الرجل .

فأجابت فى هدوء :

ـــ طيب .. وماذا تريد منى أن أفعل ؟

ـــ أن تخرجى معى ، فإن لك أهلا .

فردت بهدوء أكثر ويدها على ذقنها :

ـــ أخرج معك لأعود إلى هنا ثانيا ، أو أخرج معك لأبقى عندكم إلى الأبد ؟

وكان الصبى على مقربة منهما .. يعبث برمل ندى يعقد منه بناء على هيئة ضريح لأحد الأولياء .. ولما سمع النقاش جمدت عيناه على وجه خاله

وظل — كما كانت أمه — فى انتظار الرد . لكن الرجل ظل يتلفت فى كل اتجاه قبل أن يتكلم ، وأخيرا قال لها وهو يهز كتفيه :

— آه .. يظهر أنكن لا تحببن إلا من يقسو عليكن .. إننى أبذل للتى فى دارى كل مودة ، وهى مع ذلك تحزم ملابسها إلى بيت أهلها غاضبة مرتين فى كل عام .. رحلة الشتاء والصيف ، وأنت يا أختى .. تلاقين من هذا الرجل كل عناء ، ولا تفارقين داره أبدا .

وبعد فترة صمت قال :

— أنا حائر فيما أقوله ، وأحسن كلمة تقال لمثلك هى « سلام عليكم » .

ورفع كفه إلى رأسه فى يأس وولاها ظهره وانصرف .

وفى إحدى أمسيات الصيف والناس نيام فوق الأسطح من شدة الحر ، دخل الزوج إلى داره ، ونادى كعادته فى أيام الخصام بصوت غاضب وأمر مبهم وكأنه يخاطب الريح :

— عشا ..

وجلس على حصير فى ضوء القمر ، فى اللحظة التى نهضت فيها الزوجة سريعا إلى مكان من الدار تحضر طعاما . وكان الصبى راقدا على قرب وفوق جسمه غطاء خفيف .. ولم يكن نائما تماما .. لأن النوم طار من عينيه عندما سمع والده وهو يخاطب الريح طالبا العشاء . ثم سمع كرعة من القلة بطريقة تجمع بين الجلجلة والارتشاف ، وصوت صينية من الصاج توضع على الحصير ، وصوت الخبز الجاف وهو يتكسر ..

ولم يكن هناك كلام ، ولا صوت إنسان آخر يشاركه طعامه . وفتح الصبى عينيه فى حذر فرأى وجه أبيه واضحا ، لأن ضوء القمر كان يغمره

وهو جالس ، وأمه على مقربة من المكان خدها على كفها .. وضفادع تنق في صمت الليل . ودجاجات فوق رصة من الحطب تقرقر في سكون يحسدها عليه بعض أبناء آدم ..

وأصاب الصبي عناد فلم ينم حتى يرى نهاية المطاف بين رجل يأكل في صمت وامرأة تجلس على هيئة الحزانى .. وودّ لو أنه كان كبيرا فقام وأخذ من أمامه كل شيء . لماذا يفعل في أمه كل هذا ؟

ورفعت أمه الطعام ، ورأى والده يخرج علبة التبغ ويلف سيجارة بأناقة وتؤدة ، ثم أشعلها ونفخ أول نفس جذبه وهو رافع وجهه إلى القمر ، قبل أن يوجه الكلام إلى زوجته ليقول :

— اسمعى .

فسمعت دون أن ترد . فاستطرد :

— هل سمعت حكاية جحا ؟

فقالت في عجب وشوق :

— ما له ؟

تقلب الصبي من جنب إلى جنب .. في شوق .. ليسمع حكاية جحا الذي اشتهر بكل طريف ، ولا بد أن والده الليلة سيكون ظريفا مثل جحا ، ما دام قد اختار هذا النوع من الحديث . وخاصة عندما سمع ضحكة ضحلة تنبعث في فضاء السطح .

قال الزوج :

— نعم . رأى أهل البلد مرة من المرات جحا ماشيا على الطريق العام ومعه حمار ورحى وعلى ظهر الحمار خرج ، وجحا يحاول أن يحمل الرحى في الخرج الذي على ظهر الحمار ، والذي يعمله الناس عادة أن يضعوا كل

فردة من الرحى فى ناحية من ناحيتى الخرج ليحصل التوازن . ولكن جحا — الله يرحمه — كان يضع الرحى بفرديتها فى ناحية واحدة فيقع الخرج والرحى على الأرض ، فيميل جحا ويأخذ الخرج ويعيده إلى ظهر الحمار ، ثم يحمل الرحى ويعمل ما كان يعمل من قبل . ورآه أحد المارة فضحك منه وقال له :

— يا جحا يا مغفل ، ضع فردة هنا وفردة هنا ، ليحصل التوازن ويسلم ظهر الحمار . أما هذه الطريقة فلا .

فرد عليه جحا ساخرا :

— وأنت مالك يا سخيف ؟

وكتم الصبى ضحكه ، وخجل أن يظهر مستيقظا بعد أن ظن أبواه أنه نائم ، وصاح ديك كأنه لحقه الفجر ، ثم عاد السكون فغلب على الليل نقيق الضفادع . وتوقف الزوج عن الحديث كأنما يستثير زوجته لتسأله عن بقية الحكاية .. فلما لم تفعل استطرد يقول :

— ومر رجل آخر فنصح جحا نفس النصيحة ، ورد عليه جحا بنفس الرد . وأخيرا تجمع الناس من حوله ضاحكين متسائلين ، فقد فهموا أن جحا الذكى لم يفعل هذا إلا لحكمة . فلما سألوه قال لهم :

— هل عرفتم الآن أنه من الضرورى أن تكون « واحدة » هنا و« واحدة » هنا ، ليسير الحمار ويعتدل الحمل ؟

فأجابوا فى نفس واحد دون أن يفهموا مرماه :

— أى نعم .

فرد جحا مقهقها :

— حسن .. لماذا إذن لمتمونى عندما تزوجت امرأة أخرى ؟

ولما فرغ الزوج من الحكاية رأى الصبى فى ضوء القمر أمه وهى تخبط صدرها بكفها ، وتهتف بكلمة لم يسمعها ، قام بعدها أبوه فنام ، أما هى فقد سهرت تبكى .

وبعد أيام قلائل دخلت الدار زوجة أخرى ..

امرأة ذات صدر وأرداف ومقصوص على الخدين ، تطرقـــع « بشبشب » فى رجليها وبقطعة من اللبان فى فمها . ذات نظرة غجرية كفيلة بأن تثير المتاعب بين ساعة وساعة ، ولم ير الصبى أباه يخاطبها كما يخاطب الريح أو جنود سليمان ، بل كان يناديها باسمها فى لين ومحبة .

وانزوت أمه أكثر فأكثر وأهملت هندامها ، وجاء إليها أخوها ذات يوم وقال لها غاضبا على مسمع من الصبى :

ـــ هيه .. هل بقى شيء ؟ اتركى داره وتعالى معى ..

لكنها سألته نفس السؤال القديم :

ـــ برجعة أو بغير رجعة ؟ لقد تزوج بلا خطأ منى ، وليس هناك امرأة تأكل امرأة . ثم إن لى فى هذه الدار أشياء كثيرة ـــ وأشارت إلى ابنها ـــ ونحن نخوض النار يا أخى لننقذ الذين نحبهم ، فكيف يجوز لنا أن نرميهم فى الحريق ؟ لمن أترك هذا ؟

فرفع أخوها كفه إلى رأسه وهو يقول فى يأس وسرعة :

ـــ سلام عليكم .

لكنها بعد انصرافه انزوت تبكى .. فقد تكون المرأة التى تزوجها أخصب منها عودا وأكثر جمالا ، ولكن .. هل هذا كل ما فى الحياة الزوجية ؟

بهذا سألت نفسها .. ثم عادت تسألها :

— ولو فرضنا أنه هو شخصيا أصابه مكروه ، فهل معنى هذا أن الأمر بيننا قد انتهى ؟

ومصمصت بشفتيها ، وأمسكت بالعود تعبث به فى الأرض وكأنها لم تفطن إلى أن الصبى على مقربة منها ، فقد نسيت فى همها كل شىء حتى نفسها ، لكنها فوجئت بكفه الصغيرة تربت على خدها الأعجف وهو يقول لها فى فرحة ولهفة من يحمل هدية إلى أمه :

— أمى .. أمى .. إن أبى قد تزوج ، وأنت حزينة لذلك .

— من قال لك هذا ؟ أنا لست حزينة .

— لا .. أنت حزينة ، وأنا عندى فكرة لكى تعودى مسرورة .

ففتحت الأم عينيها ونفسها للصبى ، وأقبلت تسأله :

— قل يا بنى .

فأجاب فى حماسة :

— تزوجى يا أمى .. تزوجى أنت الأخرى ، مادام هو قد تزوج .

فوضعت كفها على فمه وهى تكتم ضحكها ثم قالت له :

— لا تقل هذا ، هذا عيب .

فرد مدهوشا :

— عيب ؟.. واشمعنى هو ؟

— هس .. لا تتكلم فإنه قادم .

ففر الصبى إلى الخلاء يجمع الصمغ من الأشجار ، ويطأ الحشرات التى لا يستطيع أن يصيدها .

. ولم يمض عام حتى مرض الأب مرضا عضالا ، وأبدت الزوجة الجديدة جزعا عليه ، حسبه كل من رآه فى أول الأمر نارا من اللهفة

والخوف على الأحباب ، فلما أدركت بعد عدة شهور أن الأمر مفروغ منه وأن هذا الرجل ميت لا محالة ، لم تعد تحسن القيام على خدمته فنحاها عنه فى غضب .

أما الأولى .. تلك التى كان يخاطبها وكأنه يخاطب الهواء ، فلم تكن تذكر إلا حسناته ، وكأنها تحمل على كتفها الخرج الذى وصفه فى قصته التى رواها وهو جالس على الحصير فى ضوء القمر ، عندما أراد أن يقول إنه سيتزوج .. لكن الناحية الأمامية — حيث ترى عيناها كل شيء — لم يكن فيها إلا كل جميل ، وإذا كان جمالها العادى قد أصبح زوالا بمرور الزمن وإنجاب الأولاد ومشاغل الدار ، فماذا صنعت له المحظية الجديدة ؟

وبعد مرض طويل رأى الصبى والده القوى ذا الشارب الأسود الذى يبدو وكأنه مصوغ من الأسلاك .. رآه يموت .. ورأى الزوجتين تتفقان لأول مرة .. لكن على البكاء عليه .

ولما مر الزمن وتفرق أفراد الأسرة كما تتبعثر حبات العقد وأصبح الصبى ابن عشرين عاما ، سهرت الأم ذات ليلة تحكى له هذه الذكريات .. وكان ذلك فى نفس الدار التى ولد فيها ، وذات صيف على حصير تحت ضوء القمر . ولما سألها الشاب متعجبا :

— لماذا كنت تتحملين كل هذا يا أمى ؟

قالت فى ابتسام :

— لأننى لم أكن متزوجة رجلا واحدا .

فشهق سائلا :

— كيف ؟

— كيف ؟.. أبنائى كلهم أزواجى . لقد رأيت ذات ليلة من ليالى

الشتاء قطة اكتسح المطر مرقدها ومرقد أبنائها على سطح الدار ، فإذا بها تحملهم بفمها لتنقلهم إلى مكان آخر ، ولم يكن شيء قادرا على منعها عن ذلك ..

واستطردت وهي مطرقة :

ـــ وكنت كلما شعرت بهزيمتي أمام الغضب من زوجي ، تذكرت أنني على الأقل أعقل من هذه القطة .. لكن .. ألا ترى أنه كفر عن كل شيء حيالي قبل أن يموت ؟.. لقد خصني بوصية .. بقطعة من الأرض .. لعله كان يريد أن يعلن ندمه ويطلب مني أن أسامحه .. لكن .. إذا كنت يا بني قد غفرت له وهو حي فكيف لا أغفر له وهو ميت ؟ ثم .. إن الذين يسامحون لا يطلبون ثمنا لذلك .. رحمه الله .

وقبل أن تقوم الأم إلى صلاتها كان الشاب يبتهل في سره :

ـــ اللهم ارزقني زوجة مثل هذه .. وأعدك يا رب أنني لن أظلمها .

أملان يتحققان

حين كنت مدرسا فى مدرسة « صفط » الإلزامية وأنا فى صدر شبابى ، لم يكن يداعب أحلامى إلّا أملان : أولهما أن أنتقل مدرسا فى مدرسة قريتى فأرتاح بذلك من ركوب الحمار كل يوم فى الصباح الباكر ذاهبا إلى المدرسة — وثانيهما أن أتزوج بنت خالى التى سترث عن أبيها ثلاثين قيراطا من الأرض زيادة على ما تلبسه من الذهب .

وكان هذان الأملان يقتسمان وقتى مناصفة ، ففى النهار أفكر فى نقلى إلى مدرسة القرية ، وفى الليل أفكر فى زواجى من بنت خالى . وكنت ألتمس إلى تحقيق أهدافى هذه ما يلتمسه الناس عادة من وسائل .

ففى المدرسة أعمل على أن تكون العلاقات بينى وبين الناظر والمفتش ، دائما على ما يرام ، وفى حياتى العادية أعمل على أن تكون العلاقة بينى وبين خالى وامرأة خالى على غاية من الصفاء والمودة .

لكن الشيخ غالى المدرس فى مدرسة « صفط » نغص على النسق الأول من حياتى ، أعنى حياتى المدرسية . وكان الشيخ غالى رجلا معتزا بشخصيته ، ماهرا فى خلق الأكاذيب ، ومن إحدى القرى البعيدة الواقعة فى أطراف مديرية البحيرة ، وقد أوهمنا بوجه عام أنه قادر على النفع والضرر فى محيط « المدارس » ، لأن له صلات عديدة ومن كل نوع بالمفتشين والمراقبين والنظار والكتبة الإداريين كذلك .

وأوهم ناظر المدرسة بوجه خاص أنه قادر على أن يفعل أشياء خطيرة . وعضد أقواله ذات يوم بأن أذاع علينا جزءا من حركة التنقلات المقبلة قبل

أن تذاع رسميا ، وصادف أن كان معظم ما قاله صحيحا . ومنذ ذلك التاريخ أسلم له ناظر المدرسة قياده ، واستحلى مائدة الغداء الشهرية التى يدعوه إليها فيأكل عليها ألوانا تصنعها زوجة الشيخ غالى بيديها ، بعد أن تطلع على كتاب يعتبر مرجعا ضخما فى فن الطبخ . وفى صباح السبت يعود الناظر ليحدثنا عن الأعاجيب التى رآها على المائدة .. ثم .. ثم يذم الزمان الذى خلق فيه ، فقد كان مبكرا أكثر من اللزوم :

ـــ لماذا لم يتأخر ميلادى يا أولادى فأتزوج طقطوقة مثل حرم الشيخ غالى تجيد صنع الروانى ، وتحسن تحمير البفتيك ؟

ويضحك الناظر عن فم سقط بعض أسنانه ، ثم يضع يديه على رأسه ليكبس العمامة فيه .

وهنا يرد أحد الزملاء فيقول فى أسف مصنوع : يا خسارة .. فيقول الآخر : فيم الخسارة ؟ ألأن الناظر تقدم ميلاده أو لأن الشيخ غالى لم يدعنا إلى الغداء ؟

فنضحك .

على أن مثل هذه الأعمال كانت تحيك العلاقات بيننا ببطء ، كما تتجمع رواسب الأنهار فتصنع الجزائر . لأن الشيخ غالى استولى على زمام الأمور فى المدرسة بطريقة مستورة حتى أصبح وضع الناظر فيها بالمؤجر « من الباطن » . وبدا المستور ينكشف حين غاب عنا زميل مرض بضغط الدم والسكر معا فمنح أجازة طويلة ، وبدأ الناظر يوزع حصصه على المدرسين ولكن بإشراف غالى طبعا ..

وبما أننى أركب حمارا فى عودتى وذهابى إلى المدرسة لأقطع بأرجله البليدة كل يوم خمسة كيلو مترات ، فقد كنت حريصا على ألا آخذ

الحصة الأخيرة لأستطيع أن أعود آخر النهار فى وقت مناسب . لكن الشيخ غالى استثقل ظلى « لله فى لله » كما أعلنها ذات يوم . وكان جدا مغلفا بمزاح حتى إنه قرأ الآية الكريمة : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ﴾ . وكانت جارحة .. لكننا ضحكنا جميعا وضحكت مع الضاحكين .. وكتمت غضبى لأنها نكتة .

ثم أصبحنا بعد ذلك أعداء . سلط على الناظر حتى أرهقنى بحصص زميلى الغائب .. وأقام وليمة شهرية نحر فيها ديكا روميا عريقا فى جنسيته ودعا إليها كل الإخوان وأهملنى . وجئت أناقشه بعد ذلك فى أمر فخالفته فاتهمنى أننى ناقم عليه لأشياء تافهة .. ففهمت وفهم الحاضرون أنه يقصد الوليمة ؟.. فتغابيت حتى لا أكون سخيفا ..

لكننى لم أملك إلا أن أكرهه ، لأن القلوب لا تستطيع أن تنكر ما يلمس شغافها وهى أولى من الأجسام .. التى لا تستطيع أن تنكر ما يلبس جلدها ..

* * *

وبقيت فى مدرسة « صفط » معذبا بآمالى وأفكارى .. ومعاكسة الشيخ غالى ، حتى لاح على الأفق العام شيء وجدت نفسى مضطرا إلى أن ألجأ إليه ، كما كان الناس يلجأون فى ذلك الحين .

كان الاستعداد قائما على قدم وساق لإجراء الانتخابات لمجلس النواب ، وقال لى خالى : إنها فرصة .. شد حيلك .. همتك يا بنى ، يمكن تنتقل لمدرسة بلدنا ..

وكانت الدعاية الانتخابية من أشق الأشياء على ومن أثقلها على نفسى .. لكنى أجبرت عليها إجبارا ، وكان خالى وامرأة خالى وبنت

خالى كذلك دوافع قوية تضرب بأيديها على ظهرى من الخلف لأتقدم . وسهرت أوازن بين المرشحين لأرى أشدهم بأسا وأقواهم نفوذا وأقدرهم على نقلى إلى مدرسة بلدى إن قدر له النجاح ، حتى استقررت على رأى .

وانتهت الانتخابات بعد أن أصبت بالتهاب فى حنجرتى من كثرة الهتاف ، وبكدمة فى مؤخر رأسى من رمية حجر ، وبخصومة بينى وبين أفراد أسرتى لأننى شذذت عن إجماعهم ، وبعداوة بينى وبين عمدة القرية لأننى كنت ضده .

ثم بتنا نترقب إعلان اسم النائب الجديد ..

وكانت كارثة ..

لم ينجح الرجل الذى هتفت له ، ومن ستر الله عليه وعلى أولاده أنه أخذ التأمين ، وحبست نفسى فى الدار خمسة أيام أخذتها أجازة مرضية ، ثم عدت إلى المدرسة بعد ذلك لألقى السخرية من خصمى الشيخ غالى ، ولأسمع أخبار الوليمة التى دعا إليها كل الإخوان احتفالا بنجاح المرشح الذى دعا له فى دائرتنا ، ولو أن الشيخ غالى غريب عنها لأنه من شمال البحيرة .

وبقينا ونحن فى قرانا نتلقف أخبار الحركة الجديدة للمدرسين ، وكنت يائسا من أمر نقلى فبقيت ساكتا . وكنت راجعا من الحقل عصر يوم من الأيام أطوح عودا من الخيزران فى يمينى حين نادى على واحد من أبناء قريتى :

— على أفندى .

— نعم .

— انتظر حتى ألحق بك .

فوقفت حتى لحق بى وحتى قال فى أسف :

— صحيح ؟

— عن أى شيء تتكلم ؟

— عن نفيك ؟

« وابتسم »

— أنا ؟

— نعم أنت . بلغنى أنك نقلت إلى مدرسة إدكو .

— يا نهار اسود .. دع المزاح إن كنت تمزح ..

— لست أمزح .. هل نسيت معركة الانتخابات ؟

فلم أرد ، واسود النهار فى وجهى ، لكننى تجلدت ، وحين علم خالى حوقل وتنهد ثم بصق فى الهواء ، أما امرأة خالى فقد لعنت أبا نائب الدائرة واستعانت عليه بالله ، وأما بنت خالى فقد تشاغلت بعد غوايشها الذهبية ..

وحين ذهبت إلى مدرسة إدكو التى تعتبر منفى بالنسبة لبعدها عن قريتنا ، قابلنى الفراش العجوز عند باب المدرسة . ولما عرفته بشخصيتى وأننى أنا المدرس الجديد انحنى على يدى كأنه يريد أن يقبلها ، وسألته عن الناظر فقال :

— آه .. فى حجرته ، من يدرى ؟

— وما اسمه ؟

— الشيخ غالى .. نقل حديثا مثل حضرتك .. تفضل ..

فضحكت وصفقت وتشاءمت وتذكرت الماضى . وتراقص أمامى المستقبل ، كل هذا قبل أن أعبر عتبة المدرسة ، فقد نقلنا نائب واحد .

ولكن الشيخ غالى استفزنى بضحكة عالية غير مفهومة ، وقدم إلىّ كرسيا فى حجرته وقال مازحا :

— اجلس .. اجلس يا على افندى .

ثم طلب لى فنجالا من القهوة ، ومر النهار ولم يحدث فيه شيء .

وفى المساء مر على الناظر فى حجرتى التى أجرتها ، وقال لى بعد أن شرب عندى الشاى .

— اسمع يا أخى . نريد أن نرسم برنامجا مشتركا .

فأجبته :

— واسمع يا أخى . أنا مستعد أن أجعل الحاضر امتدادا لماضينا المنغص .

— كيف ؟ ولماذا تقول ذلك ؟

— كيف ؟ فى المرة السابقة اعتمدت أنا على الناس فضرونى ونفعوك حتى التقينا هنا ، فلا مناص لى إذن من أن أعتمد على الله فى هذه المرة .

— يعنى لينفعك ويضرنى ؟

— لينفعنى فقط ..

فمال على واحتضننى وقبلنى وقال :

— ثق أننى كنت أحترمك .. من زمان .. حتى فى الأيام التى كنا فيها فى « صفط » ، لأنك تحب أصدقاءك عن عقيدة وتكره أعداءك من عقيدة ، وهذا من طبعى كذلك .. صدقنى ..

فحملقت فيه قائلا :

— صحيح ؟

— بشرفى وشرفك .

— اتفقنا إذن .

* * *

وبعد ذلك بعامين ، يوم أن صدر أمر نقلى إلى مدرسة قريتى وانتهى خالى من إعداد جهاز بنته لتزف إلىّ — كان الشيخ غالى يودعنى على المحطة مع عدد من الزملاء وعيونهم مملوءة بالدموع . وأطللت عليهم من السيارة وأنا أبكى .

بركة مخزن القمح

كان محصول القمح فى هذه السنة رديئا غير كثير ، جعل النفوس الشحيحة تزيد شحا ، والنفوس الكريمة ، أو معظمها على الأقل ، تعطى فى غير سخاء .

لكن عم عبد العزيز ، الرجل الغنى النفس ، عزل من قمحه قبل أن يدخله المخزن ما يخص الله منه ، ووضعه فى مكان بعيد عن متناول أيدى أولاده . ثم نادى زوجته الحريصة وقال لها فى اهتمام شديد وبصوت خافت :

« اسمعى يا ستى . هذا القمح لم يعد ملكنا الآن ، إنه ملك الله ، رزق قسمه لبعض عباده لكنه سيجريه لهم على أيدينا ، أنا وأنت الآن أشبه ما نكون بساعى البريد ، هل تعرفين ساعى البريد ؟ إننا سنوصل رسالة أو طردا للفقراء والمساكين ، وأنت تعلمين أننى مسافر غدا فى الصباح الباكر لبعض شئونى فى المديرية ، وربما غبت هناك بضعة أيام .

لذلك أصبحت أنت الآن مسئولة ، مكلفة ووكيلة عنى فى توزيع زكاه زرعنا ، فوزعيها بنفس سخية لتقيم البركة فى مخازننا .. وزعيها بلا تأخير ..

ثلاث كيلات لأم جمعة لأنها تربى يتامى ، وقد أوصانا الله بمعاونة اليتيم ، وكيلة واحدة لعم مبروك الفقيه المكفوف ، فقد أوصانا الله بمعاونة غير القادرين ، وكيلة واحدة لخادم المسجد ، لأن خدمة العابد عبادة ، وهو رجل فقير ، وكيلة واحدة لأم شعبان التى فقدت كل أولادها ، وقد

أمرنا أن نواسى المنكوبين بأقوالنا وأعمالنا .

كم كيلة إذن تكون صدقة هذا العام يا ستى ؟ .. فأجابته وهى شاردة :

— ست كيلات من القمح ، يعنى نصف أردب .

فهزّ رأسه وقال لها :

— هذا هو مال الله وهو أمانة بينّ أيدينا ..

وكان صوت الرجل منخفضا يشوبه حرص وحذر . كان يذكر من يسمعه بصوت أحد الأطباء حين يحذر شخصا ما من أكل طعام فاسد ، وبعد أن سكت نظر لزوجته بعينين فيهما لمعان السيوف ، ثم بات ليلته . ولما أصبح الصبح سافر فى وقت باكر إلى المديرية لقضاء بعض شئونه الهامة .

وعاد الرجل من سفره بعد أيام ، فذهب توا إلى المخزن وتفقد القمح الذى لا يخصه ، فوجده قد وزع فحمد الله ونسى الموضوع ، وشغل الرجل كما يشغل كل الناس بأمور الحياة ، حتى انقضى شهران .

وكان ذلك مساء بعد أن غابت الشمس بقليل ، وعم عبد العزيز راجع من الحقل على ظهر دابته وأمامه سلة فيها أنواع من الخضراوات أتى به زرعه .

رأى الرجل على بعد امرأة تتعثر راجعة إلى القرية ومن خلفها ثلاثة أطفال متلاحقين فى العمر ، لكن على كل منهم طراوة الطفولة . وكانت المرأة تتكلم بصوت مرتفع أو تنصح أو تخاصم ، وكان صوتها يقترب من الراكب قليلا قليلا ، حتى إذا لم يبق بينها وبين عم عبد العزيز سوى بضعة أمتار عرف أنها أم جمعة ، أم اليتامى الضعيفة الصحة ، الفقيرة المسكينة

التى تركها زوجها فى منتصف الطريق وانتقل إلى العالم الآخر .

كانت تلوم أحد أطفالها على عدم مهارته فى العمل ، والطفل يردّ على لومها بالبكاء . وكان هذا فى اللحظة التى حاذت فيها ركوبة عم عبد العزيز أم اليتامى وأولادها .

ألقى عليهم تحية المساء ، فردّت الأم باهتمام واحترام ، ودعت له بإخلاص أن يديم الله عزه ويكفيه شر المرض ويعيد عليه الأيام بخير . وكانت لهجة الأم مشحونة بالتأثر حتى كأنها مخنوقة بالدمع ، ولعل هذا كان راجعا إلى ضيقها الحاضر من تصرف ابنها الباكى .

واقتسم عم عبد العزيز وهو راكب على ركوبته ما فى السلّة من الخضراوات بينه وبين الأم ، فكان هذا سببا جديدا لاستئنافها الدعاء له بأن يديم عزه وألّا يحرم أولاده منه ، ثم فاضت عيناها بالدموع .

وهنا تذكر عم عبد العزيز أنه كان من الواجب أن يرسل لمثل هذه الأم كمية من القمح أكثر من الكيلات الثلاث ، التى أرسلها لها فى الموسم منذ شهرين .

ولما كان هذا الرجل من الذين لا يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى ، فقد قال لأم جمعة معتذرا فى حذر :

« كان بودى يا أم جمعة أن أقدم لك من مال الله أكثر مما قدمت ، ولكنك تعلمين أن المحاصيل فى هذه السنة لم تكن جيدة ، ولكن .. « معلهش » .. وعند الله مغانم كثيرة » .

فقالت المرأة بحرارة وكسوف :

« لا يا سيدى ، كتر خيرك ، فضلك علينا ، أنا دايما بادعى لك مش علشان حاجة ، لكن .. أصلك راجل طيب » .

وهمّ أحد أبنائها أن يقول شيئا ، فسارعت أمه وغمزته فى كتفه ليسكت . فجعل فعلها هذا الشك يتسرب إلى قلب عم عبد العزيز ، شك فى تصرفات ترك غيره يعملها ، فساق ركوبته حتى وصل إلى الدار وتناول العشاء بوجه غير مبتسم وفكر غير حاضر ، ثم استأذن وخرج من الدار .

وعند باب المسجد قابل الشيخ مبروك الفقيه المكفوف وسأله فى قلق : « هل وصلتك الأمانة يا شيخ مبروك ؟ » .

فضحك الرجل ضحكة مكسوفة ، وتكلم كثيرا كأنه يريد أن يبين بساطة الموضوع ، ثم قال له : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق »

وبعد أن سكت قليلا قال : « نفسك معانا على كل حال يا حاج عبد العزيز ، أنا أقرأ لك الفاتحة عقب كل فجر بسبب وبغير سبب لأنك رجل طيب » . ثم ضحك ضحكة المحروم .. وفهم الرجل أن القمح لم يصله . وسار الشيخ مبروك يتحسس الطريق بعصاه ، وكان وقعها يصل إلى أذن عم عبد العزيز وهو واقف فى مكانه حيث كان كأنه نسى أن يمشى .

ثم آن لعم عبد العزيز أن يترك مكانه ويذهب إلى خادم المسجد وطرق عليه باب داره ففتحت له زوجته ، فسألها قائلا : « هيه .. هل وصلتكم الأمانة ؟ » فهزّت رأسها تقول لا ، وكان وجهها الفقير على الرغم من ذلك هادئا مبتسما تبدو عليه الطيبة تحت نور المصباح الصاروخ الذى كان نسيم الليل يلعب به .

ومن هناك سار عم عبد العزيز حانقا مهموما ، وتوجه إلى دار أم شعبان الثاكلة التى فقدت ولديها ، وطرق الباب فلم تردّ عليه ، وألحّ فى الطرق فلم تفتح له ، وكان الليل ساكنا فاستحيا وانصرف .

دخل عم عبد العزيز داره بعد العشاء بكثير ، وكان كل من فى الدار نائمين وليس هناك صوت إلا نباح كلبه فوق السطوح ، وصوت الوز الذى يقطقط وهو راقد . ونادى الزوج على زوجته فاستيقظت من نومها وأحست أن هناك أمرا غير عادى ، فسألته فى جزع :

— خير ..

فقال لها :

— خير .. فقط ، أحد الدائنين واقف لنا على باب الدار ويلح فى طلب ما علينا له ..

فقالت فى تعجب :

— « أحد الدائنين .. يلح فى طلب ما علينا ؟؟.. كيف هذا ؟؟ لسنا مدينين لأحد » .

فأجابها زوجها :

— « بالعكس ، علينا دين ثقيل ولكننا مماطلون » .. فلم تفهم شيئا ، فاستطرد : طبعا ، نذكر ما للناس وننسى ما لله ، هل وزعت قمح الله على أصحابه من عباد الله ؟ » .

فبلعت ريقها ولم تردّ .

فقال بخشونة وبصوت عال : ردّى ..

فهزت رأسها بالنفى ، فقال لها : ولماذا فعلت كل هذا ؟؟

فمرت فترة صمت قبل أن تقول لزوجها بخوف :

— « أنت تعلم أن المحاصيل كانت رديئة ، وأن الأفواه التى تأكل الحبوب فى دارنا كثيرة مثل المطاحن ، وقد استكثرت أنا نصف أردب من القمح أوزعه على الناس ، لذلك بخلت نفسى به فأدخلته المخزن ثانيا بعد أن

سافرت إلى المديرية » ، ثم خرجت من أمامه خائفة تاركة له المكان .

ولما أصبح الصباح كان عم عبد العزيز على باب مخزن القمح ، فتحه ودخل وفى يمينه كيلة ، وفى يساره غرارة ، وخرج بعد مدة ونادى أحد أولاده الأقوياء ليساعده على حمل القمح الذى كيله ، ثم أخذ عم عبد العزيز فى توزيع القمح على المستحقين .

قالت زوجته ودمعة على خدها ، وحيرة على وجهها :

— ماذا تفعل يا عبد العزيز ؟؟ حق المساكين عندك نصف أردب ، فما لك أخرجت من المخزن أردبا كاملا ؟؟ موسم القمح قد فات والغلة قليلة والأفواه كثيرة ، فيكون معنى هذا أننا لن نجد حبوبا لبقية السنة .

فقال لها كأنه يؤدبها :

— اسمعى ! اصمتى ، فى عملى هذا عقاب وصدقة وتكفير .. عقاب لك على طمعك فى مال الله ، وصدقة لأنها صدقة ، وتكفير حتى يغفر الله لى عدم سهرى بنفسى على توزيع ماله على عبادة ، هل فهمت ؟؟.. توكلى على الله إذن وانصرفى .

* * *

وفى هذا الصيف نفسه لم يكن لأهل القرية — ومن بينهم عم عبد العزيز — حديث إلا ارتفاع فيضان النيل . كانت موجة جديدة من الفيضان تمرّ على هذه القرية الواقعة على الشاطئ ، وكان الفلاحون ينظرون إليها بذعر وخوف كأنها بوادر طوفان .

ودخل عم عبد العزيز على زوجته ظهر أحد الأيام وقال لها :

— إن القرية قد خسرت محصول الذرة الصيفى المزروع على النيل ، لأن الماء ارتفع فى الليلة الماضية حتى أتى على كل ما فى الحقول .

ثم أخذ يشرح لزوجته كيف أن أعواد الذرة أصبحت مغموسة إلى نصفها فى الماء . أشبه بالغريق الذى لا يعرف العوم ، ولا يحمل طوق نجاة .

وبدا الوجوم على الزوجة ، فقال الزوج ساخرا :

ـــ لا تحزنى فإنها أرزاق ..

فسألته :

ـــ وأين هى هذه الأرزاق ؟؟

فقال لها :

ـــ الناس يخوضون الماء ما استطاعوا ليجمعوا للماشية أعواد الذرة الغريقة ، أليست هذه أرزاقا للمواشى التى شق الله أفواهها قد ضمن لها رزقها .. لا تحزنى يا ستى .

فسألته فى وجوم : ولم ينج حتى فدان واحد ؟؟

فقال مؤكدا :

ـــ لم ينج حتى قيراط واحد .. اسألى ..

فقالت : وهل سيرتفع الماء من جديد ؟ فأجاب ضاحكا :

ـــ ليرتفع أو لينخفض ، فقد قضى الأمر ، لا تكونى مثل التى كسرت بلاص العسل فقعدت تبكى على الفخار ، ونسيت أن تراب الأرض يبرق أمام عينيها بالعسل ..

قالت الزوجة فى حسرة :

ـــ الحمد لله ، وزعنا القمح وأغرقنا الذرة .

فقال ليثير أحزانها :

ـــ صحيح ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثلاثة فدادين ذرة تقاوى ،

وعرق ، ومصاريف ، وأخيرا .. غرق ، له الأمر .

فاعترضت قائلة :

— هل تضحك من المصائب ؟؟

فقال :

— أنا أضحك من سروري بفعل الله . « ما عندكم ينفد وما عند الله باق ». هل تتذكرين أردب القمح ؟؟ لقد صار اليوم ثلاثين أردبا من الذرة ، من ثلاثة فدادين نملكها فى أرض الجزيرة ، على شاطئ النيل .. الذى أغرق معظم الأراضى فى هذه المنطقة ، الماء وقف عند أرضى .. لم يشأ أن يغرقها .. كأنها عالية ، كأنها جبل ، ولن يرتفع بعد ذلك ، خلاص ، توقف الفيضان .. هذا لأننى أقرض الله قرضا حسنا .. هل فهمت أيتها البخيلة ؟.. افهمى ..

ورجع عم عبد العزيز يضحك من جديد .

أما الزوجة فقد كانت ذاهلة ، عيناها محملقتان ، وفمها مفتوح والكلمات متجمدة فيه ..

بقية العمر

كانت القاعدة عند صاحبة هذا البيت الصغير هى .. ألا تسكن عزابا ..

ولكننى كنت الشخص الوحيد الذى شذ عن القاعدة ، لأن أمى شاركتنى السكن فى الأشهر الأولى من المدة التى أقمتها فى هذا البيت . وكانت تسافر وتعود وتغيب وتحضر مددا متفاوتة الطول ، وترجع حاملة معها لصاحبة البيت هدايا من الريف تشرح صدر سكان المدينة . وكانت هذه الهدايا مدعاة لأن ترى صاحبة البيت الجانب الحسن من أخلاقى طوال مدة إقامتى عندها .

والرواق الذى كنت أسكنه عندها وأنا طالب كان ذا ثلاث حجرات ، شغلت أنا واحدة منها وشغل الحجرتين الباقيتين رجل طيب كان يدعى « عم زكى » رب أسرة فقيرة صغيرة العدد لا تعدو أن تكون أبوين وولدا وبنتا .

وبحكم الجيرة والاشتراك فى دورة المياه وصالة الرواق كذلك ، نشأت علاقة لطيفة بين أمى وأم صلاح زوجة عم زكى . وكان لهدايا الريف سحر ساحر أيضا ، وأخذ شديد عند عم زكى بالذات . كان يحب البسيسة المصنوعة من دقيق الذرة الطازج المنخول .. ودقيق الذرة عند الفلاحين شىء غير غالى الثمن ..

وفى المدة التى كانت أمى تغيبها عنى كنت أجد من أم صلاح شبه أمومة تحوط بها شابا جاوز العشرين ، ومن سن ابنها بالضبط .

وكانت فى الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت فى بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تالفة العدة .

ومن خلال الحوائط « البغدادلى » والنوافذ المفتوحة زمن الصيف ، والعبور فى الصالة إلى دورة المياه ، والعلاقات العادية المألوفة ، والمناقشات التى لا تقبل الستر بطبعها ، من خلال هذا كله عرفت أحوال هذه الأسرة .

وكان عم زكى يشتغل « منجدا » ولم يكن له دكان مستقل مع أنه قد جاوز الخمسين من عمره . ويزعم عم زكي أن العز أدركه مبكرا وارتحل عنه مبكرا ، شأن الحياة وحكم قانونها ، لأن لكل زمان دولة ورجال ، والشمس لا تنير إلا نصف الأرض والنصف الآخر يكون فى الظلام الدامس .

ونقطة التحول فى حياة عم زكى هى مرضه بالربو ، لأن تراب آلاف القناطير من القطن القديم — كما يقول — قد نفذ من تلافيف رئتيه ، وهو لذلك لم يعد مستطيعا مواصلة العمل .

على أن السر الحقيقى فى إعراض عم زكى عن عمله هو كسله ما فى ذلك ريب ، وعلى الرغم من أنه مريض بالربو فإن وجهه مشرق بالصحة يكاد الدم ينبثق من صلعته الحمراء . والشباب حائر فى بريق عينه لا يريد أن يغيض . ولولا أن السوس أتلف أضراسه فخلع منها ما تحت خديه ، فانخسف الخدان على هيئة نقرتين — لبقى لعم زكى قدر أعظم من وسامته القديمة .

كان كسولا ثرثارا مهملا أكولا ، من نوع من الرجال يستطيع الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التى يقدمها لزوجته

والنقود الأقل التى يمد صلاح ابنه بها البيت .. كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخن ، ويهمل ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية عن أيام العز .. أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيام بلياليها .. أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تنهداتها عن الحاضرين وتدير البيت بطريقة سحرية ، وتقترض ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد .. وتطهو أخس أنواع الأطعمة بطريقة من يحمر خروفا ، وتبتسم وفى قلبها جروح .

وكانت تقول لأمى عندما يفيض بها الغم : إنه لا أمل .. لا أمل إلا فى شيء من شيئين ، فإما تموت فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلا من غير طراز أبيه .

وكان لهذه الأسرة موسيقا صباحية تعودت سماعها مثل ألحان الراديو ، كنت أسمع قبقاب عم زكى وهو راجع من دورة المياه بعد الوضوء ، وأسمع تشهداته وتنهداته وابتهالاته إلى الله بطريقة تثير ضجر الإلـه . وكنت أبتسم وأستغفر أنا الآخر حين أتخيل أن الله لا يريد أن يسمع دعاءه ، لأن عم زكى رجل لا يلتمس الأسباب . وقد رأيت الفلاحين « يبذرون الحب ، ثم يرجون الثمار من الرب » .

وتنبعث من الحجرة الأخرى معركة حول ما ينبغى أن يعمل وما ينبغى أن يطبخ وما يجب أن يقدم وما يجب أن يؤخر ، ومن ثنايا هذا كله كثيرا ما كانت تعلو تهديدات صلاح بانقطاعه عن عمله اليوم إذا لم يأخذ قدرا معينا من النقود . ثم أنين « زينب » الأخت وتوسلاتها بصوت مؤنث خافت ، وصراخ الأم ودعاؤها على نفسها بالسكتة ، ثم جئير الأب كأنه الثور فى المرعى .

على أن الأيام السخية الخضراء فى حياتهم كانت تعتبر أنموذجا لأيام السعادة البشرية .. فترة أحلى من الراحة بين مغصين والسلام بين معركتين .. كنت أستشعر حلاوة ضحكاتهم على قلبى ، وأكاد أتذوق لذة مضغهم للطعام بصوت عال فى الحجرة المقفلة وأنا ماشى عبر الصالة .
وكانت أمثال هذه الفترات قصيرة المدى فى العادة لا تقع لأسرة عم زكى إلا فى الأوقات التى ينسى فيها المرض والثرثرة وينتظم فى عمله نوعا ما .

وكان « صلاح » امتدادا جيدا لخصال أبيه السيئة ، أما زينب فكانت امتدادا متوسطا لخصال أمها العظيمة . وكانت أم صلاح لا تسمح لبنتها مطلقا أن تلج على باب غرفتى حتى ولو كانت أمى فيها . وكانت زينب جميلة فقيرة تذكرك حين يقع عليها بصرك بالثمرة الناضجة التى تسقط من على غصنها فى طين الحديقة ، فأنت حين تراها تتمنى أن تأكلها .. مغسولة ..

ورثت وسامة أبيها وعينيه الملونتين . وكانت تشعر بشىء من الحرية فى تصرفاتها إذا كانت أمها فى الخارج حتى ولو كان أبوها فى البيت . شىء على عكس ما يألفه الناس . ولكن عم زكى كان مشغولا بمجهول يلهيه حتى عن عمله .

وكان بينى وبينها شىء ما ينتظر فرصته ليظهر . وحين كانت تسنح الفرصة على السلم فى لقاء عابر أو فى المسكن إن غابت الأم ، كان الجبن والتردد فى نفسينا معا يوهمنا أن الفرصة القادمة أكثر فاعلية وتمكينا من أن ننال ما نشتهى . وهكذا حتى ظلت التفاهات غذاءنا فى الحب .

* * *

وفجأة تقضت الأيام وانتقلت من البيت ..

ومرة أخرى ـــ وكأنما وقع ذلك فجأة ـــ أتممت دراستي وارتحلت عن القاهرة .

وكنت أذكر عم زكي كلما رأيت مرتبة أو لحافا أو وسادة ..

وأذكر زوجة عم زكي كلما رأيت أحدا ينفخ فى قرية مقطوعة ..

وأذكر زينب كلما رأيت حسناء مغلوبة صابرة على غلبها ..

ثم عدت لا أذكر شيئا ، ونصلت ألوان أيام التلمذة وانطفأ البريق الخاطف الأخاذ الذى يشوش شعور الشباب فى أيامه الأولى ، واعتدل الميزان فى يدى فعرفت تقدير الأمور .

لكننى على الرغم من هذا كله أتمنى على الله شيئا واحدا هو أن أتزوج امرأة مثل زوجة عم زكي ، لأنها فى كثير من الأوقات كانت قادرة على استغلال الصفر ، ولأنها أقفلت بابها فى وجه كل شبهة وهى تحت زوج ظله كظل النخيل ، لا وارف ولا ظليل .

وتعاودنى هذه الأفكار ثم أنساها .. ثم تعاودنى ثم أنساها .. إلى أن حضرت إلى القاهرة فى نهاية صيف ، ودخلت دكان الترزى لأفصل بدلة جديدة لمناسبة سعيدة هى زواجى .

كنت جالسا أتصفح جريدة اليوم حين رأيت وجها خيل إلى أننى أعرف بعض ملامحه . ولما ابتسم بدت سن مكسورة عند مدخل الفم فتذكرت حادثتها فقد كسرها لصلاح ابن عم زكي أحد صبيان الحارة بلكمة ظلت ثأرا مدة ثلاث سنوات . ونهضت وأخذته بالحضن ودار شريط الذكرى حتى كدت أسمع تشهدات أبيه وابتهالاته إلى الله بطريقة تثير ضجر الإلـٰه . وكان قصارى كلامنا أن أصر على ألا يقول لى شيئا عن أحد : « تعال إلى البيت وسترى كل شيء .. نفس المكان . تعال الليلة

مساء .. » .

ولم أتمكن لظروف طارئة ، فالذين ينزلون المدينة لقضاء حاجات عاجلة كثيرا ما يخذلهم الوقت .

وكان مقررا أن أسافر ظهر اليوم فأحسست بحنين شديد إلى أن أرى هذه الأسرة التى جاورتها عامين كاملين ، وأن أرى صاحبة البيت والسلم المظلم والرواق وحوائطه « البغدادلى » فكثير من التوافه تكون فى حياتنا أشياء ضخمة كما تتكون الجبال من حبات الرمل .

وعرجت على البيت ساعة الضحى ، وكان أول ما صدمنى أن صاحبته غير موجودة . كانت فى مقابر الإمام بمناسبة « طلعت رجب » ، ولما صعدت إلى الرواق كان كل شيء ساكنا فيه . وعند المدخل تقريبا بدت فتاة حسناء واقفة وفى يدها وعاء من النحاس .. ووسعت عينيها لأنها أنكرتنى .. فلما سألتها عن عم زكى أدخلتنى فورا إليه وانصرفت هى إلى شأنها .

وكان أول إحساس لمس قلبى بمجرد جلوسى على الكرسى هو إحساسى بالندم . لم يكن هناك داع لأن أرى هذه الأشياء المثيرة .

كان عم زكى جالسا فى الحجرة وحده وفى يده لقمة طرية محشية جبنا يأكلها بسرعة كأنه خارج ، ووضعها على حافة الشباك ثم سلم على وهو « يتمطق » وكان كل شيء فيه منطفئا إلا حركة فمه فى الطعام أو الكلام . عيناه الملونتان كالنجوم الغائرة ولونه الأحمر كالح حائل وشعر صدره باد من الجلباب المفتوح . والمؤلم للغاية أن عوده الطويل انحنى من فوق ، ولما وقف يسلم على كان « قوس المنجد » على مقربة منه مسندا إلى الحائط ، فخيل إلى أنهما أخوان توأمان ولدا فى بطن واحد وتعرضا لحظ

واحد وجرت عليهما أحداث زمان واحدة ..

وتكررت التحية : « ازيك .. سلامات .. » من عم زكى عشرين مرة . ثم تذكر اللقمة فمد يده وتناولها وعاد يتلمظ ويتكلم :

— « كيف حال والدك ووالدتك وأخواتك ؟ بخير ؟ الحمد لله .. أين أيام زمان . وأين بسيسة الذرة الطازج المنخول ؟ كله يتغير .. حكمة الله .. أتعرف من هذه التى قابلتك فى الصالة ؟.. زوجة صلاح . ها . ها . ها . تزوج الملعون بعد وفاة أمه . هل تعلم أن أم صلاح ماتت ؟ .. »

وهنا توقف عن الكلام وابتلع آخر لقمة .. واحتقن وجهه فعاد أحمر كأيام زمان . وبدا لى كأنه مخبول أصابته نوبة من العقل . ثم اغرورقت بالدمع بقية عينيه . وابتلع ريقه وقال بهمس مؤثر :

— الله يرحمها .. أنا أتعبتها كثيرا . كنت أتدلل عليها كأننى طفل . « فين الكحك بعدك يا عيد ؟ » .. وسكت ..

فقلت : وزينب ؟

— تزوجت . هنّاها الله ..

ثم نظر إلى القوس المسند إلى الحائط متهما له كنظرة الشريك الخاسر إلى شريكه الخاسر ، وقال : أما الصنعة فإنها ظلمتنى — قلت فى نفسى : بل أنت الذى ظلمتها — واستطرد عم زكى : ولذلك فقد أوصى على الأسطى عزت الترزى الذى يعمل عنده ابنى صلاح — أوصى على أحد زبائنه الموظفين الكبار ليبحث لى عن عمل يناسب صحتى ، وبقية عمرى ..

وقمت لأدرك القطار .. فتعلق بى قائلا : حتى نشرب الشاى .

(حلم آخر الليل)

فاعتذرت له ، فاستطرد فى حنين : هل تذكر الشاى مع بسيسة الذرة ؟.. هه ؟.. هل تذكر ؟ فوعدته أن أحضر إليه كيلة من الدقيق ليعملها بسيسة كلها .

وسار معى إلى الباب فودعته وحملته التحية لصلاح وطلبت منه الدعاء . فلما ابتهل إلى الله كدت أضحك لأنه عملها بنفس الطريقة التى كنت أتخيل أن الله يتضجر منها .

ثم أردف عم زكى ونحن عند العتبة تماما :

— ادع لى أنت يا بنى ليوفقنى الله إلى هذه الوظيفة ..

وحركنى فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع وظيفة تصلح لعم زكى ويصلح لها عم زكى . فسألته ، فقال ببساطة من يوضح أمرا واضحا :

— خفير !

قلت مستغربا :

— خفير ؟.. خفير على ماذا ؟

— خفير مراحيض .

فقلت فى نفسى وأنا أهبط السلم وأدور مع انحناءاته فى ظلمة النهار :

— وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه الهمة ..

صديقان فى المدينة

كان يكبرنى بأكثر من ست سنوات ، وكان رقيقا شاعريا حساسا ، لا تبدو المشاعر على صفحة وجهه حتى ولو كانت عنيفة . لذلك فإنه كثيرا ما كان يحترق بهمومه دون أن يشعر به إنسان .

كنا نتعلم معا فى المدينة ونسكن مسكنا مشتركا . وكنا أبناء إقليم واحد ، بل إن قريته لم تكن بعيدة عن قريتنا بأكثر من بضعة كيلو مترات .

ولما رأيته لأول مرة لم يعجبنى فيه شيء .. لا لون وجهه الأسمر المصفر ، ولا صوته الهادئ أكثر من المألوف ، ولا شروده الطويل وعوده الطويل .. لكننى ما لبثت أن اكتشفت فيه يوما بعد يوم شيئا حببنى فيه . فلم تكن صفرة لونه إلا من إرهاف إحساسه ، ولا هدوء صوته إلا من فرط رقته ، ولا شروده الطويل إلا لتأمله لكل ما حوله .

وكان ابن ثلاث وعشرين عاما ومدرسا فى مدرسة التجارة المتوسطة ، وكنت أنا فى التعليم الثانوى ابن سبعة عشر عاما فى الوقت الذى لا أزال أجمع فيه التجارب ، أما هو فقد كان لظروف كثيرة ــ قد جمع منها قدرا يحسد عليه .

ولم يكن كثير المذاكرة ولا المثابرة ولكنه كان شديد الذكاء . يضمنا مسكن من حجرتين .. وكنت وأنا فى حجرتى أحس أنه قام مبكرا بأحد أمرين : إما أن يفتح علىّ الباب ويقول بصوت هامس طيب : « تصبح على خير » ، وإما أن أسمع حركة المزلاج وهو يغلق عليه بابه قبل أن ينام .

وكثيرا ما كنت أشتاق أن أجالسه أثناء السهرة ، فأدق على الجدار

الذى يفصل بين الحجرتين فيأتى كما يمشى الطيف وعلى فمه الواسع ابتسامة حيية فنقطع عملنا لكى نستريح ونجلس على كرسيين متجاورين حين يبدأ فى حكاية إحدى نوادره التى ما كنت أشبع منها ، وكان إذا أراد أن يتكلم عن شىء بدأ حديثه بعبارة شيقة فيقول مستفهما :

— هل تعلم ؟

— بماذا ؟

عند ذلك يبدأ فى حكاية ما يشاء . فعلمت من حكاياته أنه وحيد أبويه ، وأن والده أنجبه على شوق ولذلك فإنهم أتاحوا له حرية كان من العسير أن يمنحها أب لابنه فى ذلك الزمن .

وقد مدته هذه الحرية بتجارب هى فى الحقيقة أكبر من سنه . لذلك كنت حين أتحدث إليه أشعر أننى أكلم رجلا يفوقنى فى كل شىء .. رجلا من سن أبى وفى تجربته على الأقل .. لذلك أحببته كما أحب الصديق والمعلم والأب والأنيس ، وزاد من حبى فيه أنه كان لا يسخر من أخطائى مطلقا وكان يبصرنى بها بحنان وحب ودارية .

سألته ذات مساء : لماذا لا تبدو متفوقا فى الدراسة وأنت فى مثل هذا الذكاء ؟

فأجاب ببساطة من يعرف موقفه :

— إننى ملول يا صديقى .. وضحك واستطرد :

— وإذا حاسبتنى الحياة بالشهادات فثق إننى ضائع ، لذلك فإن أساتذتى فى المدرسة يحبوننى ويشفقون على معا ويتنبأون لى إما بخيبة كبرى وإما بشهرة كبرى . وأنا شخصيا أعتقد أن الحياة تعطينا الأسهل والأرخص .. فالخيبة أقل تكلفة وأسهل منالا من الشهرة .

وإقفال باب المسكن قبل الفراق بالنسبة لقلبينا الغضين عملية عسيرة . كنا نحن الاثنين من النوع العاطفى ، لذلك فإن دموعنا كانت تغلبنا وإن غالبناها .

وسهرنا الليلة الأخيرة قبل الرحيل نحكى من ذكريات طفولتنا وسعادتها والمخاوف التى مرت .. والمخاوف التى نخشاها فى المستقبل . ثم سافرت أنا إلى القرية لأننى ما كنت أطيق البقاء فى المدينة يوما بعد الدراسة . أما هو فقد ودعنى إلى المحطة . وكنت أسمع كلماته وأرى بسمأته وهو مستند إلى الشباك من الخارج حتى غلبته سرعة القطار . وتركته فى المدينة فى انتظار النتائج .. نتيجتى ونتيجته ونسيت بين أحضان الأهل مشقة عيشة الوحدة وخدمة النفس . ولم يكن ينغصنى شىء إلا الخوف من كبوة الحظ .

حتى كانت ليلة ..

كان جوها حارا خانقا والنوافذ الريفية مفتوحة كلها يتسرب منها ضوء القمر ورطوبة الليل ورائحة الندى ونقيق الضفادع . وفى ظل هذا السكون كنت أفكر فيما عسى أن يتمخض عنه الغد بالنسبة لى ولصديقى . وخيل إلى فى هذه اللحظة أنه قريب منى وأننى أسمع صوته فانتبهت فإذا الوهم حقيقة وإذا به ينادينى من تحت النافذة .

وخرجت أجرى سريعا فألقيته واقفا جنب الركوبة التى امتطاها ليقطع بها خمسة كيلومترات فى الليل على الطرق الزراعية وعانقته فى ظلام الحارة وخرج ورائى أخى الصغير يحمل إلى المضيفة مصباحا ساذجا وجلست أنا وهو واجتمع حوله طائفة من أهلى .

ومن الغريب أننى ارتبكت فلم أعرف كيف أفتح الحديث ، حتى

لكأنه شخص لم أعش معه . وكأنما لذّ له أن يتركنى لهواجسى فترة لأنه لم يعلن إلى نبأ نجاحى فور لقائنا . قال :

— مبارك نجاحك .

ثم قام فقبلنى مرة أخرى وتبادل التهانى مع أهلى . وسألته فى لهفة :

— وأنت يا حسن ؟

فرد بسعادة ظاهرة جدا :

— وأنا أيضا .. الحمد لله ..

ولم يطل مكثه بالطبع ، فالدنيا ليل ويجب أن يعود .

ولما خرجنا لوداعه عند أول الطريق كان الهلال قد غاب وغطى القرية جوها المألوف ، قلت له وأنا أنظر إلى النجوم المتلألئة :

— لا بد أن يصاحبك رجل حتى حدود بلدكم .

فسخر قائلا :

— وهل أنا امرأة . أنا مقدر كل ظروفى قبل أن أسير خطوة واحدة . لا . أرجوك . فقط أرجو ألا تنسى أننى سعيد لتهنئتك فى ظلام الليل ولم أنتظر حتى الصباح لأننى أعلم أنك تقلق بلا داع .. وداعا يا أخى .. وأنا بانتظارك .

قلت بحماسة :

— سآتى إليك غدا لأهنئك ولأتغدى معك .

فضغط على يدى مودعا وركب وظللنا نتبع ركوبته البيضاء بأبصارنا تحت نور النجوم ونحن واقفون .

* * *

وما أن ارتفع ضحا اليوم التالى حتى كنت عنده .

ولم أر أحدا من أهله لأننا نزلنا إلى حديقة صغيرة تقع أمام بيتهم . وجلسنا تحت إحدى عرائش العنب نقطف ونأكل ونتكلم ونضحك ونذكر متاعب وملذات عامنا المنصرم .

ونمنا بعد الغداء تحت إحدى خمائل الجنينة ثم استيقظت بعد العصر وأنا أشعر كأنني قضيت ساعة فى الفردوس الحقيقى .

ولما آذنته بالانصراف قال لى بصوت يشوبه الرجاء :

ـــ يا سيدى .. مهلا .. لماذا أنت متعجل .. هبنا ساعة أخرى حتى نشرب الشاى وتكون حدة الشمس قد خفت فتركب فى هواء الأصيل .

ـــ أمرك .

ولما جلسنا نشرب الشاى قال لى فجأة :

ـــ اسمع يا حسنى .

ـــ نعم ..

ـــ هل تعرف ماذا سأعمل بإذن الله فى العام القادم ؟ إننى جهزت برنامجا فذا .

فهتفت كالمصعوق :

ـــ العام القادم ؟.. العام القادم ؟.. أى عام تتحدث عنه يا حسن ؟ ألم تقل إنك نجحت ؟ هل ..؟..

ووقفت الكلمة على شفتى وجمدت يدى بكوب الشاى وهى فى الطريق إلى فمى وامتلأت عيناى بالدموع ، فى الوقت الذى بدت فيه بوضوح على وجهه الطويل الأسمر المشرب بصفرة علامات الفشل الذريع . لكن ابتسامة لا يفهم معناها كانت جامدة على شفتيه .

وظللنا هكذا مدة لا أدرى مداها حتى أخرجنا هو من الموقف قائلا :

— ماذا جرى ؟.. إن الأمر لا يستدعى هذا الحزن كله .

— تذهب فى ظلمة الليل لتهنئنى بالنجاح وأنت ..

فسمعته يضحك وغابت عن وجهه علامات الأسف وقال :

— هذه أعز تهنئة أقدمها إليك .. وعلى كل حال إذا كنت أنت قد رأيت فيما عملته لك شيئا شاذا فأنا على العكس منك .. فلقد شعرت أن نجاحك قد منحتى قدرا من السعادة خفف مرارة فشلى . ثم ماذا كنت تريد أن أقول لك يا أخى الصغير ؟.. هل كنت أريد أن أنغص عليك فرحك ؟.. ما أشبهنى إذن بمن حمل باقة من الأزهار فى إناء .. لا .. لا ..

ثم سكت ليستطرد :

— والأيام أمامى وقد عملت برنامجا فذا للعام المقبل .. ستجدنى شيئا آخر .. وأننى إذا كنت من الذين لا يحسنون أعمال التلاميذ فأنا أيضا لست من الذين يستسلمون للهزيمة .

* * *

وعانقنى على الطريق وأنا ذاهب .. وبين الفينة والفينة كنت ألتفت إليه وأنا على ظهر ركوبتى لأشبع نظرى من ذلك النموذج العزيز فأراه واقفا ليفعل مثل ما أفعل . ومنذ منحنى الطريق نظرت فلم أجده .. وعند ذلك فقط أخرجت منديلى لأكفكف دموعى .

جددنا المواعيد

بدت الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها أنا وزميلي رفعت فى مثل سعة الصحراء ، بعد أن تركني وسافر . كانت مؤلفة من حجرتين اثنتين وفسحة كبيرة .. وكل واحد منا يشغل حجرة .. فيها فراشه وكتبه وكل ما يملك الطالب من أشياء .

وكانت الساعة الخامسة مساء حين استيقظت من نومى وجلست على مكتبي ، أذكر الأيام التى مضت والتى قضيناها معا وأنا وصديقى .. وهو الآن فى الصعيد مدرس فى إحدى المدارس الثانوية .

تخرج قبلي بعام لأنه سبقنى بعام وسألحق به بعد انقضاء هذه السنة . وسألت نفسي : ترى أين يكون موضعي من الأرض وفى أى بلد سآكل عيشي ؟

وتنهدت وقمت أدور فى المكان كأننى أحسست مللا ، ومررت بباب حجرته المقفل فهبت عليّ روائحه من وراء الباب . وعرجت على المطبخ بلا تدبير فأشعلت موقد الجاز وجهزت كوبا من الشاى ثم رجعت وجلست أشرب .

كنت أقطع الأفكار بالرشفات ، وأهز رأسي من حين إلى حين كأننى أستعيد ذكرى مأساة ، وكانت نكهة النعناع تملأ أنفي ومزايا صديقى تملأ قلبي .

وقهقهت فجأة حين تذكرت آخر غرام له فى العاصمة . وكان كثير الغرام ، حبه الأخير قبل أن يرحل كان مع فتاة رقيقة القلب والحال

والجسم ، تعمل بائعة فى أحد المحلات الكبرى .. وكان اسمها فوزية . قال لى صديقى إنه لم يكن يقصد أكثر من كلمة استحسان ولمسة غزل يوم التقى بها للمرة الأولى فى المتجر الذى تعمل فيه ، وشيعته يومئذ بعينين ناعستين وسهوم متعطش .

ثم التقيا مصادفة فى يوم أحد ، واحتك كتفه بكتفها والجمهور خارج من السينما ، فكانت فرصة أخرى للقاء صنعت أولى حلقات العلاقة بين الفتى والفتاة .

ولم يكن رفعت راغبا كل الرغبة فى مد حبل العلاقة بينهما . كان كثير الصداقات ، صلب القلب ، يستعمل شخصيته الجذابة مصيدة يعذب بها القلوب الضيقة . وكان حين يحدثنى عن غرامياته يبدو فى هدوء من يحسب حسبة أو يسألك عن الساعة . وكنت أحاول أن أعرف موضع القوة فيه فأعجز ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة أو قوة جذب أحدهما للآخر سر إلٰهى خالص . ولذلك رأينا جميلات مائلات البخت ووسماء لا تحبهم الأنثى ..

ونفذت نكهة النعناع إلى خياشيمى وأنا أضع الكوب الفارغ فى ناحية من المكتب ، وكنت أقول فى نفسى فى هذه الوهلة : مسكينة فوزية ! كانت متعلقة به ثم تركها وسافر . ولعل قلبها يحاول التخلص من شباكه الآن بلا فائدة ولا طائل كما تفعل فراخ العصافير .

وفى هذه اللحظة دق جرس الباب فأحسست إحساسا مبهما أن اليد التى قرعته يد خائفة مترددة ، وأن هذا الطارق لا يطلبنى أنا . ربما يكون مخطئا وربما يكون لصديقى .. الغائب .

وجدت نفسى — بعد أن فتحت الباب — وجها لوجه أمام فتاة

متوسطة الجمال ، عليها دلائل واضحة من رقة القلب ورقة الجسم ورقة الجمال . ولفت نظرى منها أكثر من أى شيء آخر جفاف شفتيها كأنها متعبة أو ظامئة . وبادهتنى بسؤال مختصر سريع حين رأتنى :

ـــ هنا يسكن الأستاذ رفعت .. أليس كذلك ؟

ثم دلفت إلى المكان دون أن تنتظر إذنا . ووجدت نفسى محرجا ، فأنا لن أدفعها إلى الخارج ولن أقول لها إنه سافر إلا بعد أن تستقر فى مكان ، فضلا عن أنها لم تكن مخيفة ولا مريبة .. كانت من النوع الذى يتأكد أى رجل أنه قادر على قهره وغلبته بمجرد وقوع عينه عليه .

وأقفلت الباب وسرت أمامها وتبعتنى إلى حجرتى .

بللت شفتها بريقها بعد أن استقرت على أقرب كرسى ، وفتحت حقيبة يدها لتخرج منديلا فسبقته رائحة عطر أنعش هواء الغرفة .. كل ذلك فى دقيقة أو أكثر قليلا . هتفت بعدها بلهجة مستعجلة :

ـــ وأين الأستاذ رفعت .. من فضلك ؟

قلت لها بلهجة من قرر أمرا مفروغا منه :

ـــ إنه سافر . ولكن يجب أن تستريحى .

فبدت عليها المفاجأة ، ثم رفت على وجهها سحابة غم خفيفة من نوع السحابة التى تخيم على وجوه الدائنين حين يتمكن مدينوهم من الفرار بطريقة غير شريفة .

وأردت أن أخفف من حدة الموضوع ، فقلت كلاما لا يعدو أن يكون كلاما فقط لا مغزى له ولا مدلول ولا طلب ولا فائدة .

ـــ نعم .. سافر يا آنسة . وهل أستطيع أنا أن أؤدى أية خدمة ؟

فردت وهى تنظر فى حقيبتها المفتوحة بهمس وشرود :

ـــ شكرا .. فالمسألة شخصية صرف ..

فقلت مستدركا :

ـــ شخصية صرف ؟ أنا متأسف ..

وكأنما أفاقت على أنها اتخذت خطة غير كريمة مع رجل كريم أحسن لقاءها وأبدى استعدادا طيبا لعمل ما تطلبه منه ، وحملقت فى برهة فشعرت أنها بدأت تستأنس بشكلى الهادئ وتطمئن لنظراتى الوديعة . وأسندت ظهرها إلى ظهر المقعد وتمكنت من جلستها ثم تنهدت بارتياح .. وقالت وسبابتها على شفتيها :

ـــ إذن سافر ؟

ـــ طبعا سافر .

ـــ هيه .. وظف ؟.. هل سيعود ؟

ـــ إن أثاثه ومتاعه كله فى الحجرة الأخرى .

ـــ حسن .. على كل حال لم تكن تصرفاته مع فتاة أحبته تصرفات رجل كريم .

فخفق قلبى وانتابنى حب استطلاع لا يغلب . لكننى حاولت جاهدا أن أكتم عنها فضولى وأن أدعها تقول ما تشاء وتخفى ما تشاء . فعلقت على قولها بسؤال :

ـــ وهل سفر الناس شيء ممنوع ؟

ـــ لا مطلقا .. لكنه إذا جاء فجأة وأحيط بالكتمان والمراوغة كان له معنى مريب .

ثم ساد سكون لم أجد فيه شيئا أقوله ، فاستأذنتها فى عمل فنجان من الشاى ، ولما رجعت إليها وجدتها أكثر هدوءا . كانت تقلب نظراتها فى

المكان بشيء من الاستقرار ، ولونت وجهها حمرة مألوفة تطبع وجوه الفتيات فى عمرهن الباكر . وحين قدمت إليها الشاى قالت بلهجة جديدة :

ــ أنت ظريف .. وأنا متشكرة جدا .. الفرق بينك وبين صديقك رفعت عظيم للغاية .

ونحن نتحرج إذا وازن الناس بيننا وبين أصدقائنا .. لكن حب الذات يغلبنا دون أن نشعر . فقلت لها بدعابة هادئة :

ــ طبعا الفرق بيننا عظيم .. هو سماء ، وأنا أرض .

فنظرت إلى من خلال أهدابها نظرة فهمت معناها ، وهى تحرك الملعقة فى الفنجان . ثم هزت رأسها وقالت :

ــ من النظرة الأولى تحكم العين عليك بأنك من الذين يطمأن إلى جانبهم .

ــ شكرا ..

ــ لكن رفعت خدع فتاة بريئة .

وسكتت وسكت .. استطردت :

ــ وأنا أعجب لهؤلاء الشبان الذين يبذلون الوعود بلا حساب . أليس من الجائز أن تكون هذه الفتاة التى خدعها مرتبطة قبله برجل آخر .. ومن قوة تأثيره تتخلى عن الأول .. ثم تخسر الاثنين ؟

قلت بشرود :

ــ جائز ..

قالت وفى عينيها السوداوين دموع متوقفة حول الحدقة كأنها نقط من الجلسرين :

ــ ألا يذكرون أن لهم أعراضا ؟ لماذا يفضلون هذه التسلية الكريهة .. أنتم تشعلون الحرائق فى بيوت الناس بالبساطة التى يشعل بها الواحد منكم سيجارة .

وكان الحماس قد بلغ بها منتهاه إلى حد أن أصابعها الطويلة كانت ترتجف ، فأجبتها بشيء من الخجل :

ــ لكن لماذا أنت منفعلة علىّ ؟ كأننى أنا صاحب الموضوع ؟

فأفاقت قائلة بأسف لطيف :

ــ متأسفة .. إن الموقف هو الذى جرفنى .. على العكس .. أنت شاب طيب .. يخيل إلىّ أنك لو كنت فى موقفه ما فعلت معها مثل ما فعل .

وحاولت أن أستوضحها ، لكننى أشفقت على رقتها أن تجرح مرتين .. إنها فوزية ما فى ذلك شك بدليل أنها تتكلم بحرارة من خدعه إنسان كانت واثقة فيه .. ثم هى تنظر إلىّ الآن نظرات لينة كأنها مجروحة تطلب ضمادا .. وأنا إذا تقدمت إليها خطوة فإنها ستخطو إلى خطوتين .. لكن ألا يعتبر هذا خيانة بالنسبة لصديقى الغائب ؟

وجاءنى صوتها يسأل :

ــ لماذا كل الرجال خائنون ؟

ــ هل أنت واثقة مما تقولين ؟

ــ لماذا كل الحنظل مر ؟ هل أكل الناس جميع الحنظل الذى فى الدنيا ؟ ذاقوا منه ثلاثة مثلا فعرفوا أنه كله مر .

ورأيت منطقها لا يخلو من المغالطة ، فآثرت أن أرد بابتسامة لا تعبر عن شيء لأننى أشفقت عليها . مسكينة !.. لا داعى لحرجها .

* * *

وفى يوم الأحد التالى فتحت الباب فوجدتها هى التى دقت الجرس .. كانت فى زينة أبهى من زينة اللقاء الماضى وعلى وجهها دلائل من جاءت لتسأل عن شخص حاضر .

وقصدت إلى حجرتى توا وبادرتنى بسؤال عن حال رفعت ، ثم توجعت قليلا من تصرفاته الخائنة ثم طلبت منى أن أعمل فنجانا من الشاى .

ثم أخذت تفحص كتبى على المكتب ، ثم حلت بعض أزرار قميصها لأن الجو مائل إلى الحرارة فبدا صدرها النحيف أكثر من قبل . ثم طرحت شبكة الصمت والسكون والحيرة والنظرة اللهفى فعلقت رجلى بالشبكة .. فإذا بى — ولست أدرى كيف حدث — أحتضنها وأقبلها وأسمع منها كلمة الحب . ثم يظلل جونا صمت مؤسف ثقيل يعرفه اثنان خانا ثالثا يعرفانه .. والثالث غائب عنهما .. لكن روحه مشرقة على المكان .

قلت لها بعد أن جمعت شتات أعصابى :

— اسمعى يا آنسة . لقد حدث بيننا ما حدث وانتهى الأمر .. وعلينا منذ الآن أن نتحمل تأنيب الضمير فترة من الزمن حتى يخفت صوته أو نتعود التأنيب .

فضحكت فى رفاهة بال ، وغابت عنها الأنثى المهزومة المجروحة التى كانت تطلب ضمادة وظهرت من خلالها فتاة ثانية متفتحة .. يوحى منظرها الرقيق فى كل ناحية أن له مستقبلا أحسن كما يورق العود بعد الجفاف .. فسألتها جادا :

— هل ترين فى هذا شيئا مضحكا ؟

— نعم يا حبيبى .

— ما هو ؟

— أن رفعت يستحق هذا الذى فعلناه لو أن له عندى حقوقا .

— لماذا ؟

— لأنه لا يحفظ عهد أحد . والذين لا يحفظون عهود الناس لا يجب أن يحفظ الناس عهودهم .. على أنه ليس عندى حق ما ..

وأخرجت زجاجة عطر صغيرة وأطلقت أنفاسها تجاهى .

وسكننا قليلا ثم عاودنا أخطاءنا من جديد . ولما هدأ ما بنا سألتها سؤالا كأنما أردت به أن أزيح عن صدرى كابوسا .. قلت :

— افرضى الآن أن رفعت طرق علينا الباب وفاجأنا بالدخول .. ألا يكون فى ذلك ما يجرح إحساسنا نحن الثلاثة ؟ ثم أى الثلاثة منا سيختص بالقسط الأكبر من الملامة ؟

قالت بشجاعة :

— لا أحد ..

فهتفت متعجبا :

— ماذا تقولين يا فوزية ؟

فاستغرقت فى الضحك وردت :

— فوزية .. أنا فوزية .. من قال لك ذلك ؟

— إذن ..

— أنا عواطف زميلتها فى المحل . هل كنت تظن حتى الآن أننى فوزية ؟ هل بدر منى ما ينبئ بذلك ؟ كنت قد جئت لطلب رفعت فأصلح بينهما فوجدت الغرام كامنا لى فى الركن .

وكنت لا أزال صامتا أراجع موقفى لأعرف ما إذا كنت ساهيا أو مغفلا . لكن الذى وصلت إليه هو أننى أحببت هذه الفتاة ، وليكن اسمها فوزية أو عواطف أو زينب أو زكية ، وأنه لا سبيل إلى التراجـع .. وجددنا المواعيد .

عبير الحرية

لم أكن قد رأيت ضاحية « المعادى » منذ عشر سنوات . كنا بعض سكانها سنة ١٩٥١ وكان أبى موظفا فى الحكومة ثم انتقل فى هذه السنة إلى مدينة « سوهاج » مهندسا فى البلدية .. وودعت الضاحية الجميلة التى قضيت فيها أزهى سنوات الطفولة وأحلاها ، وسافرنا إلى الوجه القبلى الذى كان فى الحقيقة هو وطنى الأول لأن أبى من مواليد الصعيد .

كان أبى فرحا جدا وهو ينظر من نافذة القطار إلى غابات النخيل على جانبى الطريق ، ويهمس إلينا بين فترة وفترة بذكريات طفولته فى هذه الأرض . وكنت أنا فى الثانية عشرة من عمرى تلميذا بالمدارس الثانوية . وكنت بالتالى ــ كشأن أبى ــ مشغولا بالأرض التى قضيت فيها عهد الطفولة ، فكانت ذكريات هذه الضاحية عالقة برأسى أرى ملامح صباحها ومسائها على كل شبر يقطعه القطار ، وأتخيل كيف أن الزمن قادر على طمس هذه المعالم من ذاكرتى . وكنت أسائل نفسى كلما ارتعشت بنا العربة أو صفر القطار على مقربة من محطة : هل سأجد فى سوهاج صديقا عزيزا مثل لطف الله ؟! وتنهدت وأختى الصغيرة ترفع صوتها طالبة أن تشرب فى نفس اللحظة التى كان أبى فيها منهمكا فى وصف الحياة الرخية التى سنلقاها هناك . أما أنا فقد كنت أذكر كيف ودّعت صديقى لطف الله .. زميلى فى المدرسة واللعب والرحلات والسهر والمذاكرة .

كان وحيد أبويه وأبوه أحد التجار .. يسكنون فى المعادى شقة فى الدور الأخير من أحد المنازل ، ويقع أمامهم قصر شتوى غارق فى حديقته لم يكن أصحابه يفتحونه إلا شهورا قليلة طول السنة . أما بقية العام فكنت أراه أنا وصديقى لطف الله غارقا فى الصمت والظلام . ننظر من نافذة حجرة صديقى فلا نرى شعاعا من النور إلا فى حجرة البواب عم ياسين ..

وكان عم ياسين هذا رجلا عجيبا . أسمر ممشوقا دقيق العينين .

أحب صديقى لطف الله بحكم الجوار ، وأحبنى كذلك بمرور الزمن . كان يعطينا بعض الأزهار ويحدثنا عن القصر وأبهته بمثل أحاديث ألف ليلة وليلة . وأهم شيء شغل بالنا هو الجناح الداخلى المكون من حجرتين كبيرتين فوقهما حجرتان مثلهما لا يصل إليهما الداخل إلا بعد مشى طويل فى ممرات الحديقة . وعندما كان عم ياسين يتكلم عن هذا الجناح كنا نشعر بأن معلوماته يشوبها الغموض والشك والتحرج . على أننا فى كل خريف كنت أشهد أنا وصديقى من بعد كيف تدب الحياة إلى هذا المكان . فعندما يهل شهر أكتوبر من كل سنة كانت الأضواء تلمع فى هذا القصر جناحا بعد جناح ، ويكثر توافد العربات عليه تحمل طائفة من الذين يسهرون الليل وينامون النهار . وعندما يتقدم الليل فى الضاحية ويسكن كل شيء فيها ، يتناهى إلى أسماع السكان على مقربة من المكان صوت موسيقى وغناء تدعو إلى رقص أرعن ، وقد يخرج من الباب شاب مخمور وهو يسب ويلعن بصوت مرتفع ، أو فتاة مخدوعة تمسح الدمع بأطراف منديل ، أو رجل يتحسس جيوبه ثم ينادى على سائق عربته بصوت متذمر لا يلبث أن يغطى عليه أزير المحرك .

كان عم ياسين يرى هذا العالم وينظر إليه بقلب حائر ، وكان بعض الضيوف يخرجون آخر الليل من الجناح الداخلى بعدما يتسلل نور الفجر عليهم من النوافذ . وكانوا بلا استثناء يغادرون القصر بوجوه مكدودة ونفوس متوترة يلمس بعضهم بعضا فى خوف وحذر ، كما يلمس الطفل سطح « البالون » المنفوخ .

وما يكاد الخريف يمر منه شهران حتى يعود الهدوء فيطبق على القصر . وفى الليل عندما أكون مارا على بابه أنا وصديقى لطف الله ، نرى عم ياسين على مقربة من حجرته أمام الباب جالسا وفى يده مسبحة ، وبعض كلاب الحراسة يحوم حول المكان . والهدوء ظاهر على وجه الرجل كأنه عليل اجتاز دور النقاهة . وفى إحدى ليالى الشتاء تقدم بنا الليل أنا وصديقى ونحن نذاكر فى حجرته هناك . وكان الليل دافئا نوعا ففتحنا النافذة ونظرنا إلى المكان .. فرأينا حدود المصابيح التى غطى الضباب زجاجها ، وقد دارت مع الشوارع الأربعة التى تحدد موقع القصر . ورأينا الحديقة المظلمة والليل الهاجع والخضرة التى تتحول إلى سواد مع قدوم الليل .

وتناهى إلى سمعنا نباح كلب مطمئن .. عرفنا أنه أحد كلاب الحراسة فى هذا القصر . كان ينبح بحكم العادة لأنه لم يشهد فى هذا المكان حادثة ما . وجرنا هذا المشهد إلى أن نتخيل الجناح الداخلى الذى حدثنا عنه عم ياسين البواب .

وتحكم خيال هذه السن التى تدلف إلى الشباب — تحكم فى تصوراتنا ، فقال صديقى : لا بد أنه مخزن للخمور أو النقود أو سلاح الزينة .

فاعترضت أنا قائلا : ولماذا لا يكون مخزنا للمئونة ، والحجرة العليا قاعة طعام ؟

فاستغرق لطف الله فى ضحك شديد ، وبين لى أن مخزن المئونة وقاعة الطعام أماكن لا بد من أن يدخلها الخدم فى القصور .

وكففنا عن التخيل وأخذنا من جديد نفحص بأعيننا عالم الواقع فى تلك الليلة من شهر فبراير ، وكان المارون قليلين والهواء يهمس فى أوراق الشجر همسات متوجة غير طويلة . وبعد لحظة صمت كنا نحملق فيها إلى أرض الشارع تبادلنا النظر فى عجب وصمت . لأن شيئا ما لفت نظرنا هناك .

كان هناك رجل يتحرك .. لا أستطيع أن أقول إنه يمشى لأنه كان مثل طوق من الحديد دفعته يد طفل وقعت عليه أعيننا فى اللحظة الأخيرة .. حين تخلت عنه قوة الدفع ووصل إلى لحظات الترنح قبل السقوط .

خيل إلينا « من طول ما شهدنا السكارى فى هذا المكان » أنه سكران لكن ملابسه وما كان يحمله معه جعلتنا نجزم بأنه متعب . عليه جلباب أسود قد شد على وسطه حزام وعلى رأسه تلفيعة ، وقد شد إلى أحد كتفيه حبلا تدلت منه قفة يدل منظرها على أنها فارغة من كل شيء ، وفى يده قصبة طويلة جدا جدا تعرف العين عندما تراه وتراه .. أنه صياد يحمل قصبة .

وجلس الرجل عند ناصية السور لكى يستريح . وجلس القرفصاء ثم انطوى لأنه طويل العود وأسند القصبة إلى سور القصر والقفة إلى جواره ، ثم أخرج سيجارة ليشعلها ورأينا عود الثقاب ينطفئ والسيجارة لا تشعل ، وعودا آخر .. وثالثا .. فكف الرجل عن المحاولة كأنما لم يكن

معه ثقاب . ولم تمض عشر دقائق حتى كان قد نام فى الوقت الذى كان الهواء يحمل إلينا فيه نباح كلب مطمئن يأتى من صميم الجنينة ..

* * *

وفى الصعيد .. بعد نقل أبى .. كنت أراسل صديقى لطف الله .

وبمضى الأيام أخذت أشعر أن لطف الله ضرورة لى على البعد ، لأن رسائله لم تكن تفاهات ولا تسلية وقطع وقت بل كنت أحس فى كل رسالة أن له عقلية وقلما يبشران بالخير . خصوصا عندما كاد يتم مرحلة التعليم الثانوى .. وبعد أن كان يصف لى فى رسائله مظهر الحياة التى دبت كالماء فى العود بعد نقل أبى من القاهرة سنة ١٩٥١ ، كان يحدثنا حديثا شخصيا فى رسائله ويدعونى أن أجىء لأشهد الدنيا التى ولدت بعد غيابى عن المعادى .

وكان أبى يعجب من وفائنا لعهدنا لأن الرسائل لم تنقطع بيننا على الرغم من أننا لم نتلاق فى خلال العشر السنوات هذه إلا ثلاث مرات أو أربعا . معظمها بفضل الرحلات . لكن .. لكن .. هذه هى الظروف قد سمحت وعدت إلى القاهرة . لأن أختى الكبيرة قد تزوجت فيها .. وكنت أنا ضمن قافلة الأفراح وأتاحت لى الظروف أن أتردد على صديقى لطف الله الذى كان يدرس الطب .

وفى الحجرة التى طالما سهرنا فيها أطللت على المعادى ، وكان الفصل صيفا ولم تكن فى الليل . وسارعت أسأل بلهفة : لطف الله .. لطف الله .. هل عم ياسين لا يزال موجودا ؟! فأمسك بيدى ونزلنا إلى هناك .. ودفع لطف الله الباب الحديدى ودخلنا . فقلت له وأنا أخطو الخطوة الأولى :

ـــ عم ياسين ليس فى الحجرة يا لطف الله ..

فلم يلتفت صديقى بل دخل إلى الجنينة وهو ينادى باسم الرجل . أما أنا فتسمرت فى مكانى خائفا من الكلاب ولو أننى لم أسمع نباحا . ولم ألبث إلا قليلا حتى برز الرجلان من خلال الممشى المشجر ، وكان صديقى يسأل عم ياسين مداعبا :

ـــ هل تعرف هذا الشاب يا عم ياسين ؟

فحملق الرجل فى وجهى وهز رأسه آسفا .. وضحكنا .. فعاد يتفحصنى من جديد . ثم ما لبث أن هتف « رشاد » .. « رشاد » زميل لطف الله .. يا سلام .. لولا النونة التى فى أسفل ذقنك ما عرفتك .

وعاد يهز يدى بالسلام .

ولم تمض دقيقة حتى عاد لطف الله يقول لعم ياسين فى همس وحذر :

ـــ تعال الآن يا عم ياسين لترينا الجناح الداخلى ، فالوقت مناسب .

وسارا أمامى وسرت وراءهما ، وأحسست أننى أشم فى المكان رائحة جديدة .. رائحة تبينها قلبى ولم أستطع تسميتها فى الحال . ولم أر خدما ونحن ى طريقنا إلى الجناح ، ولم يقابلنا أحد . فعللت ذلك بأن صاحب القصر يغيب عن القاهرة طوال الصيف مثل العادة خارج البلاد .

حتى إذا ما وصلنا إلى هناك رأينا باب الجناح موصدا ، ووقفنا نحن الثلاثة ، وكنت فى انتظار أن يفتح عم ياسين مثلا أو أن أرى الباب مفتوحا . ولمحت عينى لافتة مكتوبة على يمين الداخل تقول : « المكتبة » فنظرت إليهما فإذا بهما يضحكان . فأحسست أن لطف الله حين سبقنى إلى عم ياسين كان قد دبر كل هذا . فسألت : هل الجناح السرى .. مكتبة ؟! هل هذا معقول ؟

فضحك عم ياسين وقال : كان وكرا للقمار .. والعار .. ولكن .. أقدار يا رشاد .. أقدار ..

وعدت أحملق فى اللافتة « مكتبه » .. وسألت فجأة :

ـــ لكن .. ما الحكاية يا عم ياسين ؟!

فقال لى : إن لطف الله صرف نظرك بمهارة عن اللافتة الأخرى المعلقة على الباب الخارجى .. لقد أصبح هذا المكان مدرسة ثانوية للبنات بعد أن عاد ملكا للشعب ..

وضحكنا .. ثم سألته :

ـــ وأنت يا عم ياسين ؟

فأجاب :

ـــ أنا .. موظف حكومة . وبنتى تلميذة فى هذه المدرسة . انظر ..

ونظرت حيث يشير .. فقال لى : تلميذة فى هذا الفصل .. وقد كانت هذه الحجرة ألعن حجرات القصر .. لكن .. طلع منها النور .. بإذن الله .

وضحك .

وعند اجتياز الممشى الرئيسى فى طريقى إلى الخروج ، لم أكن أسمع صوت خدم ولا نباح كلاب . وعادت الرائحة التى لمست قلبى عند الدخول تلمسه من جديد .. لكننى فى هذه الآونة وجدت لها اسما .. عرفتها ..

فقد كانت عبير الحرية .

قلب إنسان

كانت داره تقع عند مدخل العزبة .. نظيفة طيبة متواضعة .. مثله .. يعلق عند بابها فانوسا يسهر طول الليل .. نتجمع عنده ونلعب فى ليالى الظلام ونهجره فى ليالى القمر ، والغرباء والتائهون يعرفون به الطريق كأنه منارة . وفى ليالى الشتاء كان يعلقه تحت ظلّه حتى لا تطفئه الريح .

ولم يكن الحاج ربيع غنيا وإنما كان يملك من الأرض ما يكفى الإنسان ، وكان يعتبر أرضه ملكا للناس لأنه لم ينجب أحدا .. كان بلا ذرية . وفتح هذا فى قلبه كل ينابيع الحنان حتى غمر الناس فجعلته القرية أبا لها . كان الأطفال يفسحون له الطريق إذا مرّ وهم يلعبون حتى لا تلوث الكرة أذيال ثوبه الأبيض ، ويشعرون بطمأنينة تغمر وجهه كأنها جزء من التى يهديها إليهم فى الليل نور مصباحه المعلق على باب داره .

والصبايا يغطين وجوههن بأطراف الشال إذا قابلنه فى الطريق ، أما كبيرات السن فيبتسمن ويحييينه لأنه يندر أن ترى دارا قد خلت من فضله .. ربما كان ابنها أحد الذين يجتمعون عنده ليتعلم القراءة والحساب ، أو ربما كان الحاج ربيع سببا فى فض خصام بينها وبين زوجها ، أو ربما كان وكيلا عنها فى إحدى القضايا ، أو حمل بنتها التى تعسرت فى الولادة إلى مستشفى البندر فى عربته فكتبت لها النجاة ، ومنّ الله عليها بغلام .

وتمنيت أن أكون مثل الحاج ربيع ، حين رأيت أهل العزبة جميعا عاجزين أن يكونوا مثله .

(حلم آخر الليل)

وكان ذلك فى يوم من أيام أبريل .. كان القمح يتمايل مع ريح شديدة صفراء معفرة يسمونها الخماسين . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى أنظر من نافذة الدار إلى منظر الحقول فى خوف وانقباض . وسمعت بعد ذلك صراخا ينبعث من إحدى الدور .. وهتف الفلاحون بأن حريقا هبّ فى العزبة . وكانت الدار واقعة فى الشمال فساعدت الرياح الحريق على أن تعبث بالدور . وكان الحاج ربيع غائبا عن العزبة فتوهم الناس أن القدر قد تخلى عنهم لأنه كان صاحب مشورة فى كل شىء .. واحترقت عدة دور على الرغم من كل جهد ، وكانت الخسائر محصورة فى المحاصيل والخشب . ومع غروب الشمس رأينا الحاج ربيع يدخل من الطريق الرئيسى نحو العزبة .. عرفه الناس ببوق السيارة التى يركبها وكان قد علم بالخبر فى أثناء الطريق ، فرأيناه يجرى بسرعة مجنونة كأنه يريد أن ينقذ فلذة كبده الوحيد من بين ألسنة النيران .. وهو .. لا ولد له ، وداره المنعزلة التى لا تحمل وقودا بعيدا عن أخطار الحريق .

وعند دخول المساء كان فى « المنظرة » اليمنى من دار الحاج ربيع عدد من أعيان العزبة سهروا يتحدثون فيما يجب أن يعملوه مع جيرانهم وذويهم ، فقد جعلهم الحاج ربيع يشعرون وكأن دار كل منهم هى التى كانت طعاما للنار .

كنت واقفا تحت شباك « المنظرة » أستمع إلى جدل الرجال ونقاشهم ، وأشب على أطراف أصابعى من حين لحين لأتلذذ بما أراه على وجوههم من انفعالات وبخاصة على وجه الحاج ربيع .. وأخيرا سمعتهم يقولون : « نعم .. هذا صحيح .. يجب أن نفعل ذلك .. يجب أن نفعل ذلك ؟! »

وضحك الحاج ربيع مقهقها وقال : لنفرض أيها السادة أننا جميعا مسافرون فى سيارة واحدة .. فينا من هو ذاهب لحضور قضية هامة ، وفينا من هو ذاهب بزوجته للطبيب ، وفينا من هو ذاهب لمجرد النزهة .. ثم تعطلت بنا السيارة على الطريق . فهل تظنون أن صاحب الغرض التافه يكون أقل قلقا على مصير السيارة من صاحب الغرض المهم ؟ فقال الحاضرون : لا والله يا حاج ربيع .. سيحزن حتما من أجل المريضة التى تئن ، أو من أجل الذى يريد أن يدافع عن قضيته . فقال الحاج ربيع : إن هذه العزبة الصغيرة أشبه بهذه السيارة .. مصيرنا كلنا واحد .. فلماذا لا نعمل صندوقا من أجل المنكوبين .. واجمعوا الحطب من فوق دوركم وضعوه هنا فى الساحة الغربية .. ولا تخافوا .

فضحكوا وضحك الحاج ربيع وقال : لا تخافوا على الحطب الذى خلق للنار .. لا تخافوا عليه من السرقة فإنه سيكون تحت حراسة رجل من الذين تثقون فيهم ، وسأدفع له أنا أجر الحراسة .

وعندما أخذ الجميع فى الانصراف كنت أنا أتسلل من تحت شباك « المنظرة » عائدا إلى الدار وصورة وجه الحاج ربيع فى جلبابه الأبيض وشعر رأسه الذى يشبه رغوة الصابون .. لا تفارق خيالى .

وكان موعد الاجتماع عنده فى الليلة القادمة . وأعلن الحاج ربيع لهم قبل انصرافهم أنه سيسافر قبل طلوع الشمس إلى دمنهور وأنه سيعود قبل المساء ، وعلى الموسرين من الذين حضروا الاجتماع أن يبدءوا فى تنفيذ المشروع .

وقضينا طول النهار التالى بعد خروجنا من المدرسة ، نلعب فى آثار الحريق بقلوب خالية لا تعرف كدر الحياة ولا معنى الكوارث .. فقد

كنا صغارا ..

وجلس أهل العزبة قبيل الغروب ينتظرون عودة الحاج ربيع . وبدأ الظلام يهبط وسكتت ريح الخماسين عن الهبوب بعد أن أنزل الفلاحون كل الحطب من فوق دورهم ووضعوه فى الساحة التى يملكها الحاج ربيع . وخيم على العزبة صمت كالذى يخيم على ساحة القتال بعد انتهاء معركة . وبينما أهل العزبة جالسة بالانتظار إذ بشاب من الشبان يبلغهم أن أحد المارين بالعربات على الطريق العام أخبرهم أنه رأى عربة الحاج ربيع غارقة فى المحمودية .. عرفها بلونها ورقمها الظاهر .. وأن أهل القرى المجاورة لم يجدوا فيها أحدا ..

وسمعت وأنا حزين إلى الفروض التى أخذ أهل العزبة يفترضونها ، فقال أحدهم : أليس من الجائز أن تكون السيارة مشابهة لسيارة الحاج ربيع ؟.. ثم .. إن الحاج ربيع قلّما يسافر وحده ..

وكانت الافتراضات كلها ضعيفة ، ليس المقصود بها إلّا بثّ الطمأنينة فى قلوب الناس .. وخرج بعض الشبان بعربة إلى مكان الحادث .. وطال الليل وامتد .. وكلما مر وقت تأزمت الأمور وأصبح الخطر شيئا محققا .

وعند منتصف الليل عاد الشبان الذين خرجوا بالعربة يؤكدون مع الحزن الشديد أن السيارة هى سيارة الحاج ربيع . فعم الهرج والمرج ، وأحس كل فرد فى العزبة أن حريق البارحة قد هب من جديد .. فى كل دار .. وفى كل قلب .

وسمعت أحد الفلاحين يقول بطريقة عصبية :

— غير معقول .. معقول أن الحاج ربيع يموت ؟ واستغفر الباقون

الله ، وردّ عليه أحد الشيوخ فى صوت مرتعش ينفى الشر عن الرجل الطيب وقال :

— من قال .. من قال إن الحاج ربيع مات ؟

وتقدمت خطا الليل .. والعزبة كلها ساهرة تسأل الغيب عن مصير رجلها المحبوب ، وفجأة لمع على الأفق مصباح سيارة كانت تأخذ طريقها نحو العزبة . وخفقت القلوب ، ونظر الفلاحون بعضهم إلى بعض .. نعم .. لقد أحسوا بما يشبه الوحى أن هذه السيارة تحمل خبرا ما عن الرجل الغائب . ولما بلغت من الطريق نقطة تجعل اتجاهها نحو « العزبة » أمرا مؤكدا ، انطلق الفلاحون على الطريق يسابق بعضهم بعضا .. انطلقوا يقابلون السيارة .. وكان الشبان أسرعهم جريا .. كل واحد منهم يريد أن يصل أول الناس إلى السيارة ليرى من فيها .

وكنت أنا مع الساهرين .. وكنت أجرى مع الناس . لم أكن أعلم إلّا ليلة هذا الحادث أن الحب يمنح قوة روحية وجسمية لا تخطر على بال الناس ، فقد كنت أنا أول الذين وصلوا إلى السيارة . وقفت أمامها وحملقت فى داخلها وأنا ألهث .

ولم أصدق نظرى .. فجعلت أهتف لأسمع الناس :

— الحاج ربيع .. الحاج ربيع ..

وهتف باسمه أقرب الناس منى . حتى وصل الخبر إلى العزبة فسمعنا زغاريد النساء توقظ سكون الليل .

كان الحاج ربيع يحكى حكاية سيارته التى سرقها لص من أحد شوارع دمنهور ، فسقطت به فى ترعة المحمودية وهو يحاول الفرار بها ، وكان لا بد أن ينهى أعماله فى البندر ، ولم يكن يخطر على بال الحاج ربيع أن القدر

سينهى الخبر إلى سكان العزبة . وضحك الرجل الطيب وقال :

— عال .. عرفت منزلتى عندكم .

ثم ضحك وأردف : حتى لو كنت مت فإننى سأعيش فى قلوبكم الطيبة .. عال .. وهل فى الدنيا أجمل من هذا ..؟

واغرورقت عيناه بالدموع ، كأن ضعف الإنسان قد لحقه لأنه تذكر أنه لم ينجب ، وإن كان كل أهل « العزبة » أبناءه .

وكنت واقفا أراقبه . كنت أحب ثوبه الأبيض وشعره الناصع كأنه زبد البحر أو رغوة الصابون .. نعم .. وكنت أتمنى أن أكون مثله .

وفى صباح اليوم التالى كانت أعمال التعمير تصلح كل ما أفسدته النار ، وابتسامة الحاج ربيع تشجع العاملين .

اليوم الموعود

آه .. ما أفظع دخول الليل على الوحيد والمريض !.. ولماذا لم يكن طويلا عليّ فى السنوات الماضية ؟

هكذا هتفت وهى تغلق النوافذ فى ليلة شتوية كثيرة الرطوبة . وانقطعت عنها الحركة الضئيلة التى كانت تأتى من الشارع الهادئ ، فبدأت تعانى الليل من أول ساعة فيه .

وبيتها مكون من ثلاثة طوابق بما فيها الطابق الأرضى .. فى الشقة التى تحتها عروس جديدة فى شهرها الأول من الحياة بعد شهر العسل مباشرة .. أما السلاملك فيسكنه زوجان قد كبر أولادهما . كتب على البيت أن يكون خاليا من الأطفال .. بعدما تغرب الشمس تسكن فى البيت كل حركة غير الحركات العادية المحسوبة التى لا يشوبها ضجيج . لذلك تحس الست « نظيرة » كل مساء أنها انغمست فى الليل انغماسا ، وأنه يتخلل مسامها ويسرى فى نفسها كأنه شىء معنوى . حزن مبهم مثلا أو ذكرى بعيدة لفقيد عزيز . فتقفل النوافذ إلى غروب الشمس وتلوذ بغرفتها ذات السرير الكبير .

والست نظيرة اليوم فى الخمسين من عمرها .. امرأة ذات مشاعر حادة حارة لا تخلو من الرقة ، والعيب فى مشاعرها أنها غير متناسبة مع دمامتها . لو أن زوجها كان شاعريا لعثر فى كيانها على حديقة للأزهار ، ولكنه كان واقعيا فظا يتناول كل شىء عن طريق الفم .. حتى الحب . عاشرته سبعة أعوام كان انفصالهما فى نهايتها شيئا طبيعيا جدا . فى

الفترة الأولى كان الأمل فى الذرية يغلب على مطالبه من الجمال ، فلما خاب الأمل فى الذرية — بسببها — اكتشف أنها قبيحة الوجه . وبحكم الطبيعة التى تعوض فينا النقص كان لزوجها من جسمها الخصب لعبة لطفل كبير . وفى الفترة الثانية من العشرة كان حنانها عليه يسكن كل أمل ويشفى كل داء . فلما أحست أنه يعتبر كل ما تبذل تملقا وخوفا من الانفصال ، بدأت الفترة الثالثة فى حياة الزوجين .. وكان فيها زواج أخرى ، ثم زلزلة للحياة القديمة أدّت إلى الانفصال .

* * *

وكانت الست نظيرة وهى تقفل الشبابيك كل ليلة تحس أنها ممسكة بجزء من الشىء الذى خرجت به من الحياة .. وهو كل ما خصها من الدنيا . هذا البيت الذى تسكن الشقة العليا منه .. من مؤخر صداقها وما ادخرته من زوجها وما ورثته عن أبيها . حولت هذا كله إلى بيت من ثلاثة طوابق ..

« لو أن لى ولدا يرثه ، أو حتى بنتا ولو كان زوجها شريرا يتعجل يوم وفاتى ، ذلك خير من لا شىء ، يا رب » .

ثم تستلقى على الفراش بعين دامعة . وتنظر إلى الصور المعلقة على الجدران فلا ترى فيها إلا أحبابا راحلين . أباها وأمها . ليتها كانت أرملة لحبيب راحل ، كانت مستعدة أن تهب له أكثر من ذاتها — لو كان ذلك ممكنا — لكنه لم يكن مستعدا ، فخرجت من بيته بالكره .. ذلك هو زوجها .

ولها أختان فى المدينة لا تكثران من زيارتها إلا إذا اشتد بها المرض .. ذلك مفهوم ! هما وأولادهما ينتظرون رحيل الحارس .. موت الست

نظيرة .. وقبل أن تستقر الجثة على التراب يتناهبون أطايب الموروث .

وعندئذ تحركت « المزيكة » فى صدرها .. مزيكة الربو . وضاقت أنفاسها تماما ، وجعلت تفكر فى اهتمامها البادى بهذا المهدوم الذى ينظر إليه الورثة ولا يرونها إلا من خلاله . وعلى حسب الظروف والأحوال تبدو بألوان وأشكال ، فأحيانا تكون قبيحة المنظر عندهم بطيئة الحركة لا تريد أن تتقلقل ليأخذوا كل شىء ، وأحيانا تبدو فى مهابة الذى يترك ميراثا يذكره بعده الوارثون بالدعاء والترحم .. لكن ذلك نادر .

ودق الجرس فى الشقة التى تحتها ، فأدركت أن الليل قد مر جزء منه .

ها هو ذا قد عاد من السهرة . إن الحياة فى شقتها هى تجميع عفشها وتحل خيامها للرحيل .. وفى الشقة الوسطى تبدأ ..

لعلها قامت الآن لتجهز له عشاء . كانت تتسلى بالقراءة — تلك العروس — أو بتطريز الأحرف الأولى من اسمه على زوايا مناديله حتى يعود ..

عندئذ تركت كل شىء وقامت لتخلو له . وجلسا متقابلين على المائدة الملحقة فى حجرة النوم لأخذ العشاء الخفيف ..

وقالت الست نظيرة وضجيج السعال يملأ تجويف صدرها :

— كنت أقدم له فنونا من السعادة .. لكنه لا يرضى .. إنه يريد أطفالا .. وما ذنبى ؟ .. لم يخلقنى الله قادرة على منح الأطفال .

ثم سكتت . كان هناك صوت يسأل عن المسئول عن هذا الخلل ؟ لو كانت سليمة من هذا الخلل ما واجهت الليل وحدها هكذا . إن دخوله كئيب على الوحيد والمريض والمحزون ، وهى الليلة تحمل الثلاث الشارات جميعا .

وجاءتها قهقهة من خلال السقف . إنهما العروسان فى الحجرة التى تحتها . ما أشبهها وهى فوقهما ببقايا الزهرة تنزلق من الثمرة بعد أن تعقد الثمرة . ستسقط حالا على الأرض ولن تتذكر الأرجل أنها بقايا زهرة .. أبدا .

* * *

على أن نوبات المرض التى كانت تأتيها لم تكن تخلو من ملذات . كانت تتقبل الهدايا وتتطلع إلى النفس البشرية عارية مكشوفة . فمثلا يأتى « صلاح » ابن أختها زينب بأكياس السكر والليمون ويحدثها بعينيه المتملقتين عن عجزه عن الزواج من أجل المهر وارتفاع أسعار المعيشة : « كل شىء جاهز إلا المهر يا خالتى .. ولو كنت أجد من يقرضنى مائتى جنيه ولو بالربا لاقترضت » ، ثم يسكت ليقول وكأنه تذكر شيئا : « طيب .. ولكن كيف أسدد المبلغ ؟ ثم ينظر إلى السقف .. إلى أعلى ، ويدعو لها بطول العمر .. »

وحمدى ابن أختها « توحيدة » .. أخذ منها نقودا ليشترى دواء فغاب وغاب ، ثم عاد باكى العينين .. « ضاعت النقود يا خالتى .. سقطت الورقة ذات الجنيهات الخمسة » .

وربما كان ذلك حقيقة ، لكن الحقيقة فى موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظللته الثقة . إنهم طامعون .

ويمتد الليل بالست نظيرة لا يؤنسها فيه إلا الفكر .

« ولو كانوا يعدوننى بالصدقات ، أو لو كنت خالية من الميراث فهل كانوا يستعجلون وفاتى ؟ ولماذا لا يفعل الأبناء مع آبائهم ما يفعله الوارثون الغرباء ؟.. »

ولم تجب عن السؤال لأنها تذكرت شيئا .. تذكرت أن توحيدة سألتها ذات يوم عن صحة ما نمى إليها .

ـــ خيرا ؟..

ـــ سمعت أنك يا أختى قد كتبت نصف البيت لصلاح ابن زينب .. إن حمدى يحبك أضعافا مضاعفة وهو لا يزال محتاجا إلى نفقات ، أما الآخر فقد توظف .

وعندئذ علاها الوجوم وودت لو أنها هدمته بيديها . والسؤال المؤلم يؤلم ولو كان صادرا عن سذاجة أو حسن نية ، كله سواء . والست نظيرة لم تكتب لأحد شيئا ، وإنما هم يوحون إليها بما يدعون سماعه .

وشيئا فشيئا كرهت الميراث والوارثين وأوشكت أن تكره المورث نفسه .. زوجها . وصممت على خطة جديدة .

ولما دخلوا عليها فى مرضها القاسى وجدوا عندها محاميا ، فزاغت أبصارهم وامتلأت حدقاتهم بالنزاع ، وعندئذ أشبعت خالتهم فضولهم وقالت إنها ستكتب وصية .. ولن يكون ما لها من نقود وأثاث وعقار مقسوما بالتساوى بينهم . إنها ستخص الذين يخصونها وتبر الذين يبرونها . إنها تعرف أن أيامها معدودة ، وقد رأت فى منامها أن الريح أطفأت مصباحها وهى طفلة على الطريق وعندئذ تاهت فى الظلام . وما المصباح إلا العمر ، وما الظلام إلا الموت . إن هذا المحامى كتب الوصية ـــ قابلة للتغيير فى كل لحظة ـــ وسيفضها بعد موتها ليعرفوا كل شىء .

وكان هذا العمل أشبه بطلقة الذعر التى تعلن بدء السباق ـــ فكف صلاح عن ذكر النقود أمام خالته ، وعاد حمدى يجدد الولاء ويقسم أن

المبلغ قد ضاع يوم ذهب يشترى الدواء ، وجاءت الأخوات يعودونها ، وترك أحدهم لها سبحة حجازية ، وترك الآخر لها مصحفا تحت الوسادة جلده من اللون الأخضر .

ولما خفت نوبة المرض وعادت شبه عادة .. لم يخف طوفان الحب ، ونام صلاح عندها ليالى متعاقبة رغم بعد الشقة بينه وبين عمله ، يدلك لها رجليها ويصب على يديها ماء الوضوء الساخن .

وفى نوبة المرض التالية دخلوا فوجدوا المحامى فأدركوا أنها تغير الوصية ، وكان حبهم محموما وتزاحموا على حجرتها كما يتزاحم المجاذيب على مقصورة . وأهدى زوج توحيدة إليها شالا من القطيفة ، أما زوج زينب فقد أهداها بسجادة للصلاة. واشتبكت الأخوات ذات مساء للتزاحم على السهر فى راحتها ..

وفى اليوم التالى رؤى المحامى .. فأدرك الورثة أنها تغير أحد البنود . فتضجر صلاح ولعن المال ، وانتهز حمدى فرصة غيابه وحمل عنه رسالة السهر . فكان ذلك مدعاة لعودة الأول إلى المبدأ .

لم تكن الست نظيرة تريد منهم شيئا ، لكنها شعرت بلذة السائق حين يقود قطيعا كبيرا بعود من التوت ، عصا من الخيزران ، فاسترسلت فى الأمر ..

* * *

ثم ماتت الست نظيرة .. وحرص جميع الورثة يوم وفاتها على أن يظهروا بمظهر من أصيب بكارثة عاطفية مرة ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وحملت غالية ، وودعت غالية وبدموع غزيرة .

وفى مكتب المحامى اجتمع الورثـة .. كان صلاح يبتهل إلى الله ،

وحمدى يتمتم فى صمت ، والأختان تلبسان الحداد .

ثم قرئت الوصية ، قال المحامى :

« توصى نظيرة بنت فلان بكل ما تملك من عقار ونقود ..

وتوقف المحامى عن القراءة ، ونظر فى وجوههم ووضع الورقة وأشعل سيجارا ، كأنه شاء أن يحاكى موكلته فى عبثها بأعصاب الورثة — ثم أكمل :

« لست فتيات غير جميلات يخترن بالقرعة بين لقيطات ملجأ الحرية » ، ليكون هذا المبلغ ضمانا لحياتهن وأشبه ببائنة « دوطة » . أما المنقولات فتقسم بين توحيدة وزينب بالتساوى » .

وخرج الرجال أولا من المكتب . أما النساء فقد غلبهن البكاء إلى حد يصعب وصفه .

وفى الطريق ، سأل صلاح بثأر هستيرى :

— ولماذا لقيطات ملجأ الحرية ..؟ لماذا ؟..

فأجاب حمدى :

— إنه كانت ترى أنواره من نافذتها فى الليل عندما يكون الوقت صيفا ، والنوافذ كلها مفتوحة .

وأطلق ضحكة مجروحة .

لقاء فى الصيف

كنت أعرفه ولم أكن رأيته منذ ثلاث سنوات ، وكان زميلى فى شركة التأمين الكبيرة المشهورة فى مدينة الإسكندرية ، وكان بيننا مثالا غاليا للوفاء والحب والألفة .

وفى بعض الأحيان كان يضايق الناس بوفائه .. إذ يسبغ عليهم من اهتمامه ورعايته وتطوعه بما قد يجلب له المتاعب ، ما يثير خجل بعضهم أو ضجره منه .

وكنت أعرفه أيضا .. يتورط لجماعة الأصدقاء فتتعشى على حسابه ، أو لزميل نصاب يعيش على مال غيره .

ولم يكن طلىّ الحديث ولكنه كان بشوش الوجه ، ولم يكن وسيما ولكن العين تحب أن تتأمله . لا يعتمد على مثل عقله فى الملمات ، ولكنه كان ماهرا فى تنفيذ ما قد يسند إليه .

كنا نضحك منه دون أن نستخف به ولا نحتقره ، وإذا اجتمع شملنا فى مكان ما وتخلف ، أحسسنا بقلق مبهم ناشئ من تخلف شىء غير أساسى لكنه نافع ، كالقلق الذى يحدث من فقدان الكأس الفارغة فى مكان خلوى مع جماعة بين يديها زجاجة من أجود الخمور .

وكنا حين نتحدث عن حبنا أو مغامراتنا يسخر منا بابتسامة طويلة أو ضحكة قصيرة . كان يتهمنا بالطيش أحيانا ، وأحيانا أخرى بسعة الخيال . وكان أطول الأصدقاء لسانا وأبرعهم سبابا يقول له :

« إن أجمل ما فيك أنك ذو إحساس مباشر ، لا يحتاج إلى كل

ما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعبلات حول العواطف الجميلة .. »

فيهز رأسه ويبتسم مبديا أسفه العميق لانعدام فهمه العميق ، مما يحمل الصديق الآخر على أن يستطرد قائلا :

« لو فرضنا أن المأكولات فقدت طعمها ، فإن ذلك بالنسبة إليك لا يعني شيئا أبدا . لأنك لا تحس بوجودها إلا عن طريق امتلاء المعدة .. وهذه هي فلسفتك فى الحب ، هل فهمت الآن ؟

* * *

ومضى على فراقنا ثلاث سنوات لم أره خلالها .

كانت الجماعة قد تفرقت . فبعض الذين درسوا الحقوق خرجوا من الشركة ودخلوا سلك القضاء . وبعض خريجى التجارة آثروا وظائف الحكومة . وبعض النشطين من الموسرين المغامرين اشتغلوا بالأعمال الحرة . وبقيت أنا فى الإسكندرية .. آخر فرد فى الجماعة بعد أن انتقل كمال أفندى — الذى كنت لم أره منذ ثلاث سنوات — موظفا فى حسابات الحكومة فى مدينة القاهرة .

وحين وقع بصرى عليه لم أجزم بأنه هو .

إن مرور الأيام يعطينا أو يأخذ منا ، لكنه على كل حال لا يدعنا على حال واحد ، ومن خلال سمرة فصل الصيف التى تتركها شمس الشواطئ على الوجوه ، ومن خلال ذقن نما شعره قليلا ، ومن خلال سحابة خفيفة ولكنها حقيقية ، سحابة من الهموم — من خلال كل هذه المواقع عرفت وجه كمال أفندى .. ذلك .. لأن الوداعة والطيبة والتسامح التى هى لباب خصاله كانت واضحة لعينى ولكن على هيئة أخرى .. على هيئة استسلام

نهائى لا يعرف الجدل .

كنت جالسا على الكازينو ، وهو على مقربة منى يقلّب بين يديه صحيفة سياحية باهتمام وعدم مبالاة الفارغين . كان يتسكع فى قراءتها كأنه يضيع وقته على قارعة الطريق . وكانت نظراته البطيئة إلى الصحيفة تقول : علام العجلة ؟ وبين الفينة والفينة ينظر إلى الأمام نحو البحر ثم يعود إلى ما كان فيه .

وهممت أن أقوم فأضع كفى على عاتقه وأنبهه إلى وجودى ، ولكننى عدت فذكرت أن الوجوه قد تتشابه وأنه من الجائز أن يكون رجلا غيره ، فأطللت من نافذة الكازينو التى تنظر إلى رمال الشاطئ ورفعت صوتى هاتفا وظهرى إلى الجالسين وكأننى أنادى على طفل يعبث فى الرمل :

« كمال .. كمال .. يا كمال »

— عيناه وأنا أعانقه تتغرغر وتحس بشرة وجهى بذقنه غير المحلوق .

* * *

— أهلا يا رجل .. أين أنت من زمان ؟

وبدأت علامات عرفناه بها قديما تأتى إلى قسماته . وجلسنا نستعيد الماضى ، ونذكر « محمود » وكيل النيابة ، و« عثمان » صاحب مكتب الاستيراد والتصدير ، و« حامد » الذى تخلى عنه الحظ دون بقية الأصدقاء .

واستطردت كأنما لأستثير ما فى نفسه ليقول مثل ما قلت له . وأخيرا تنهد ومال نحوى يذكّرنى بما قاله له بعضنا قديما ، من أنه « مخلوق ذو إحساس مباشر لا يؤمن بما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعبلات حول العواطف الجميلة » فقلت له :

ـــ نعم أذكر .

فأجابني :

ـــ لكن الذى حدث لى بعد أن فارقتكم كان عكس ما تعلمون .

ـــ هل لك قصة ؟

ـــ نعم ، وسأحكيها لك .

* * *

ككل العزاب كنت أنتقل من مسكن إلى مسكن ، وأنت تعلم مقدار حبى للعزلة وخوفى من مشاكل الحب .

فكدت أكتم ضحكى حين رأيته يتكلم عن الحب بنفس السذاجة القديمة . واستطرد :

كان يحدث أن أسكن فى بيت فيأخذ بعض الجيران فى مناوشتى فأرحل عنه . ويحدث حينا آخر أن أشعر بأننى فى صحراء فأرحل باحثا عن الأنس . وأنت تعلم أننى من العزاب الذين لا يدخلون بيوتهم إلا آخر الليل .

« قلت فى نفسى : هذه هى الروح القديمة ستبدأ فى الظهور » ، فضحكت وضربته على كتفه وقلت له : أكمل .

فقال :

ـــ وفى منزل مكون من دورين فقط ، الأسفل مخازن ودكاكين والذى فوقه مكون من شقتين صغيرتين فى حى حديث الإنشاء غير متمتع بالنظافة العامة ولا بالنور .. فى هذا المسكن أخذت شقة من حجرتين .

وجدت أنه بعد ما عدت مساء إحدى الليالى من السهرة ودخلت ، أن سمعت طرقا على الباب ففتحت ، فإذا بى أرى أمامى سيدة ..

« فحملقت فيها أستشف دخيلة نفسها ، فإذا بها تخيب أملى »

ـــ لم تكن إلا صاحبة البيت الساكنة فى الشقة المقابلة ، سيدة مسنة مريضة ، سألتنى وصوتها يتذبذب فى ارتجاف من الألم عن نعناع أو ليمون أو أى شيء يوقف المغص . وعرفت أنها وحيدة وأنها محتاجة إلى عناية . وكان الوقت شتاء ، ولست أدرى لماذا وجدت فى منزلى نعناعا .. كنت أحب أن أشربه مع الشاى ، فأجبت طلبها . ولما أيقنت أنها وحدها دخلت معها فصنعت لها شرابا دافئا وملأت لها إحدى الزجاجات بالماء ووضعتها عند قدميها . وانتظرت حتى أرى ثمرة علاجى فإذا ببوادر الراحة تطفو على صفحة وجهها المتألم ، ودعاء خجل متعثر تهمس به . ثم سألتنى قبل أن أنصرف :

ـــ أليست هذه الليلة ليلة الجمعة ، كأنى ناسية ؟

فأكدت لها صحة ما تقول ، فأبدت قلقها لأن بنتها قد تأخرت فلم تعد من السفر حتى الآن .

وهممت أن أسألها عن بنتها وعن تفاصيل حالتها العائلية لأننى لم أحس أنها وحدها قبل ذلك ، لكننى آثرت ألا أتدخل فى شئون الغير .

ولم تمض دقائق حتى سمعنا وقع أقدام على السلم . إنها هى بلا شك .. فالصاعد إلى فوق لا بد أن يكون لى أو لها . وأنا لا أحد يأتى إلىّ . وكان من الطبيعى أن أفتح الباب للقادمة . فلما فوجئت برجل فتحت فى عينين جميلتين فيهما اتساع وجهد وتعب ، ثم دخلت وشاركت أمها فى استدعائى . ولأول مرة أحسست بخزعبلات العواطف تلمس قلبى لمسات مترددة لم تلبث أن تحولت إلى قبضة تدق على بابه بإلحاح ..

« ورجعت بكرسى إلى الوراء وقلت له : يعنى بالاختصار أحببت »

— لا تقلق.. كن صبورا.. كان قلبى مثل أرض « الملاحة » عند مدخل المدينة ، فأصلحته هى ثم زرعتـــه بالحب .. هل ترثى لى يا صديقى ؟ إننى أرى فى عينيك علامات الرثاء . ليتك تضحك منى كما كنت تفعل قديما .. اضحك ليخف عنى الحزن . إن سخرية الناس من همومنا قد تخدعنا عنها فنتوهم أنها صغيرة ، المهم . إننى عرفت أنها مدرسة فى مدينة قريبة ، وأنها تقطع الطريق ذهابا وإيابا إلى مدرستها فى قطار السكة الحديد ، وحدث أن تأخر بها القطار فى هذه الليلة التى احتاجت أمها إلى عناية .

وشيئا فشيئا ، وعن طريق رعاية هذه السيدة ، أحسست وأنا بلا أم منذ حداثة سنى أننى وجدت أمى بعد أن كبرت ، وأن لذة كبرى تتحقق لى لأنى عملت من أجلها شيئا . وبدأ الليل يأخذ صورة أخرى فى خاطرى حين كنا نجتمع نحن الثلاثة ، فيتحدث الشابان — أنا والفتاة — عن مشاكل الحاضر ، وتتحدث العجوز عن آلامها وعن لذتها حين ترى باسمة فى ابنها المتزوج البعيد عنها وفى بنتها القريبة منها .

ولعلك تسألنى عن سر انتصار هذه الفتاة دون غيرها من الفتيات ؟

كان الجو الذى نمت فيه علاقتنا ساحرا متلصصا فى وقت واحد ، وكان مشبعا بالخيال فقد حدث أن تصورت مرة بعد مرة ونحن الثلاثة فى جو الحب والود والطمأنينة أننا زوجان ، وحدث أن استغرقت فى خيالى حتى لم أعد أفرق بينه وبين الحقيقة . وكنا نتكلم ذات ليلة والأم راقدة فى فراشها متدثرة بأغطيتها ، فانتبهنا فجأة إلى أنها مستغرقة فى النوم ، عند ذلك تبادلنا النظرات وقررنا أن نتسلل ونتركها ترتاح . وفى طريقى إلى مسكنى أوصلتنى إلى الباب فاشتبكنا فى عناق لم أذق مثله من قبل . ثم

درج الحب فى طريقه قدما إلى الأمام . لكن .. آه يا صديقى ، وقع ما لم يخطر لى على بال .

ثم حدث أن نظر نحوى قائلا : لم لا تسأل عن النهاية ؟

فأجبت باستخفاف لأخفف عنه بعض ما يقاسيه :

ـــ مفهوم أنك فقدتها بطريقة من الطرق .

فأوقفنى بإشارة من كفه وقال :

ـــ وماذا لو علمت أننى رأيتها بعينى هاتين مع رجل آخر ، وعلى حالة تجزم أن ما بينهما ما يحرم على النفس الكريمة أن ترتبط بامرأة مثلها .. ـبيه .. ما رأيك ؟؟

وأخذ يدق الأرض بقدمه ويهز رأسه ويسأل فى شرود : ما رأيى ؟

فأدركت أن الحزن الحديث العهد قد فعل فيه ما فعل ، فرجوته أن ينسى على الأقل أن يحاول ، فقال :

ـــ ماذا ترانى أفعل الآن ؟ إننى أتنقل وأتنقل طالبا من الأماكن الغريبة أن تلهمنى أشياء جديدة .. لكننى حتى الآن ومن شهرين مضيا لم أحصل على قليل أو كثير .

فقلت فى حنان :

ـــ عندى اقتراح . تعال عندى فى الريف ، ستقيم فى مزرعة صغيرة فى ضيافتى لمدة أسبوع وأظن أنك ستوافق .

* * *

وكان الصباح نديا ونحن جالسان فى شرفة واسعة تطل على حديقة المنزل وأمام كل منا لبن وفاكهة . وبدا « كمال » حليق الذقن هادئ النفس نوعا ما ، وتكلمنا فى أشياء معظمها يدخل البهجة على القلوب . وفى

عصر ذلك اليوم سألنى ونحن نجتاز مدخل القرية :

— أليست هذه بقايا مقبرة ؟

فضحكت وقلت :

— نعم .. كانت قديما تشوه مدخل القرية ، فنقلوا ركامها ولم يبق منها إلا هذا الضريح وما يحيط به من ملحقات ، وهو لأحد أولياء الله كما ترى ..

وانتهى الأمر . ولم يسألنى عن شيء ، ولم أوضح له ما قد يكون خافيا . وبعد مرور يوم آخر ونحن نتناول فطور الصباح قال لى :

— إن الفتاة التى حدثتك عنها لم تخنى .. لقد بالغت فيما قلت لكى أظهر بمظهر المضطر إلى الترك . لكن حقيقة الأمر أنها تزوجت غيرى بمحض اختيارها وبلا ضوضاء .

ولم أجد بدا من أن أصدقه .. هو صاحب القصة ، وهو الذى يرويها .. ثم هو فى ضيافتى .. ثم .. ألا يجوز أن يكون قد أصيب بهزة عصبية ..

ولم يبق فى الضيافة إلا يوم واحد .

وفى الليل حين كنا نتسامر والقمر يريق أشعته الوديعة على رءوس الشجر والأرض والحقول ، وفى فترة صمت شبعت منها نفوسنا سمعته يتنهد ، وقال لى :

— اسمع يا صديقى .. إننى لم أقل لك الحقيقة منذ أول الأمر . إنها لم تخن ولم تتزوج ، إنها ماتت .. ماتت .. ماتت .

وانخرط يبكى بعنف .

فتركته يفعل حتى إذا ما أفاق سألته فى مثل رفق الأمهات العاقلات إذا

ضبطن أحد الأبناء متلبسا بكذبة ..

ـــ طيب .. ولماذا نزلت هذا السلم .. لماذا لم تقل من أول الأمر ..

فأجاب يتوسل :

ـــ لأنني أريد أن تقول كلمة واحدة .. تقولها بعقيدة وحرارة لتصل إلى قلبى .. لتقول لى : إن الحالة الأخيرة خير من الفرضين الأولين .. خير من الخيانة أو زواج رجل آخر . فأنا أريد أن أقنع نفسى ولكن عن طريقك .. لأنها يا صديقى كانت صاحبة الأرض .. أقصد أنها أصلحت قلبى كما تصلح الأراضى البور ثم زرعت فيه الحب .. ولذلك كانت صاحبة الحق فيه . فهل تقول لى هذه الكلمة فأستطيع أن أنساها ؟

ودمعت عينى وقلت له وأنا أقرب مقعدى من مقعده :

ـــ اسمع يا كمال .. أتذكر المقبرة التى رأيتها عند مدخل القرية .. تلك التى نقلوا ركامها إلى مكان آخر .. إن ركام هذه المقبرة يكون هذه الحديقة .. وفى القديم كانت مستنقعا ثم ردموه .. وها هى اليوم كما ترى .. لقد ظل الفلاحون سنوات يخافون زرع هذه البقعة التى طالما خافوها .

ثق أنك ستنسى ..

وأخذت بيده بعد قليل حيث دخل إلى فراشه .

وفى الصباح بعد أن تناولنا طعام الفطور رأيت صديقى يقلب فى الأفق الواسع عينين هادئتين ويتنفس طويلا ويقول فجأة :

ـــ سعيد .. ألا تحس معىّ أن النسيم اليوم أكثر عذوبة ؟..

فأجبت وأنا أخفى ابتسامى :

ـــ نعم .. نعم .. وسيظل هكذا دائما .

حنانك يا أبى

كانت هذه الليلة هى التى قرر فيها نهائيا أن يترك الدار .. فقد انقضى اليوم الأول من أيام العيد وأخذت فرحة القرية تفتر ..

وآوى كل إلى فراشه يفكر فى عمل اليوم التالى ، وكأنما انقطعت الصلة بينه وبين الحقل منذ شهر كامل .

أما « سعيد » .. الذى قرر نهائيا أن يترك الدار ويرحل ، فقد أعد الخطة بإحكام حين جمع ملابسه وخبأها فى مكان ما ليأخذها وهو خارج فى الصباح الباكر ، والكل نائمون ليرحل .. ليرحل إلى .. إلى حيث لا يدرى أحد حتى أبوه وأمه .

ولم ينم سعيد طول الليل . كان يغمض عينيه ليتخيل أنه بعيد عن هذه البقعة التى ولد فيها ، ويستعيد تفاصيل كل ما حوله من لون الباب وظلمة الدهليز ، إلى ملامح أمه الطيبة المطيعة ، إلى وجه أبيه الذى لم يتبسم له .. عندما يفعل كل ذلك يحس حرارة الحنين وهو لا يزال فى الدار ، فضلا عن المخاوف من المجهول الذى سيتعرض له غلام فى هذه السن .

كان يرقد بجواره أخوه الذى يكبره بعام واحد .. وتحت نور المصباح القروى الساذج الضئيل النور ـــ لذّ لسعيد أن يتأمل وجه أخيه .

كان مستلقيا على ظهره وملامح وجهه وهو نائم واقفة عند تعبير لا يتغير كأنه يجتاز حلما جميلا . ومن ملابسه الداخلية فاحت رائحة عطر من الذى يستعمله الفلاحون مرتين فى السنة .. يعنى فى العيدين . ودمعت عيناه حين تذكر من جديد أن أخاه هذا الذى يجتاز الحلم السعيد واليقظة

السعيدة ، من أهم الأسباب التى ستجبره على الفرار من الدار .

* * *

وصاح ديك على السطح مؤذنا بقرب الفجر ، فنهض من مكانه وهو يسمع دقات قلبه وألقى على وجه أخيه نظرة كبلتها الدموع .

وبعد أن أقفل باب الحجرة وقف قليلا عند الحجرة التى تنام فيها أمه . وخيل إليه أنه على وشك أن يناديها ليودعها ، فعجل بالانصراف قبل أن يغلبه لسانه ، ولو أنه كان جاف الريق عاجزا عن أن يتكلم .

واتجه نحو المخبأ فأخذ أشياءه وانسرب فى الدهليز يتحسس طريقه إلى الباب . وارتفعت فى سماء الدار قطقطة الأوز فغطت على الحركة حتى أقفل الباب وراءه وانصرف .

وأخذ يجدّ السير كأنما كان وراءه من يتعقبه . ولفرط خوفه لم يحاول أن يلتفت وراءه ، متوقعا بين وهلة ووهلة أن يحس بثقل كف على كتفه أو صفعة على وجهه . ولم يكن فى حسابه شيء أكثر رهبة من الخفير الجالس عند حدود القرية ، فإنه ربما تنبه له وعند ذلك ستنهار الخطة كلها . وسيأخذه إلى أبيه ولا يكون هناك إلّا البقية المؤسفة . لكنه لحسن حظه وجده جالسا على المصطبة محتضنا بندقيته وقد غلبه النوم .. وعلى الأفق قمر هزيل وتصايح الديوك على السطوح يصل إليه تباعا كأنها فى سباق .

* * *

وعلى الطريق الزراعى العام كان كل شيء هادئا .

لكن نفس سعيد كانت شديدة الجيشان .. فيها ندم وأسف وعلى خديه دموع لا تجف !!

وكان متأبطا صرة ملابسه وفى جيبه نقود تكفيه عشرة أيام ، جمعها

من مصروف العيد ومن مناسبات أهمها المنح التى كان يأخذها من خاله .. ولم يذهب إلى محطة سكة الحديد القريبة .. بل اختار محطة أبعد .. ليركب منها بأجر أقل إلى مدينة « طنطا » حيث لا يسكن هناك أحد من أبناء قريته ، ولا يخطر على بال أبيه — إن فتش عنه — أن يذهب إلى هذه المدينة .

ولم يكن يقلقه شىء إلّا أمر المبيت .. لكن سرعان ما خطر على باله اسم زميل له كان يتعلم معه فى مدرسة القرية . وكان هذا الزميل أكبر منه عمرا وأكثر مالا .. ومن إحدى القرى المتاخمة .. وكان بينهما صداقة . وعلى أساس البحبوحة التى يعيش فيها زميله يمكن أن يبيت عنده عدة ليال حتى يدبر لنفسه عملا .

وما أن ارتفع النهار حتى كان على باب مدرسته يسأل عنه ، وأخذته الدهشة حين رآه لكن الحب غلب على كل شىء . وذهبا معا إلى المسكن المشترك الذى يقيم فيه الطالب مع غيره . وعند هبوط الليل كان القروى الصغير يقص على صديقه ما دفعه على الهرب من أبيه :

« أنت تعرف أن أبى هو الخياط الوحيد فى القرية ، وهو لذلك يعيش فى سعة من الرزق . وليس له من الأولاد إلّا أنا وأخى « سعد » الذى يكبرنى بسنة واحدة . لكننى عشت بين أبى وأمى — وأبى على الخصوص — وكأننى غريب عنهما .

ولم يشجعونى على الكلام مرة ونحن على الطعام ولا حين يجمعنا السمر . وكنت كلما حاولت أن أشارك فى حديث أو أدلى برأى سخر منى أخى الكبير وانحاز إليه أبى . أما أمى فلم تكن لائمة أو ساكتة لذلك فإنى لم أحس أننى واحد من هذه الأسرة يوما من الأيام .

وبمرور الزمن أصبحت أكره أخي ، وكان أبي أشبه بالعصا التي تقلب النار كلما خمدت . الأعمال في الدكان مقسومة إلى قسمين .. أحدهما فني مشرف والآخر عادي تدخل فيه أعمال الخدمة والنظافة . ولعلك تستطيع أن تعرف نصيب كل واحد منا على ضوء ما حدثتك عنه .

ولن أقص عليك كل شيء في حياتنا لأن هذا غير ممكن ، ولكنني سأقص عليك تفاصيل حادثة وقعت لنا قريبا وكانت هي آخر عهدي بدار أبي ، لأنني لم أطق الإقامة فيها بعدها .

كان ذلك قبل العيد بشهر ، وكان أبي غائبا عن القرية .. بات ليلتين في الخارج ليشتري لنا مطالب العيد .

وكان أخي « سعد » بطبيعة الحال يقوم مقامه أثناء غيابه . وكنت أرى في عينيه نظرة الزهو والخيلاء وهو مكب على جلباب من الصوف لأحد أغنياء القرية يعمل فيه بإبرته ، وأنا جالس على ماكينة الخياطة أحيك قميصا رخيصا لأحد الفلاحين . وقال لي سعد في فترة الغداء :

— هل تعرف لماذا سافر أبوك ؟

فقلت باختصار ومرارة :

— لا . طبعا .

فعادت الابتسامة المزهوة ترفرف على شفتيه ، وطغت على نظراته أمارات خبث وقال :

— إنه سيشتري جلبابا من الصوف .

فسارعت قائلا :

— لأجل .. لأجل .. العيد ؟!

فضحك وردّ في سخرية أخرجت الكلام في أنفه ..

ـــ نعم .. لأجل .. العيد . لماذا لا تقول من أجلى ؟

ـــ من أجل من فينا ؟!

ـــ وهل هذا محتاج إلى سؤال أيها الغبى ؟ من أجلى أنا .. أما أنت فأنت تعلم ماذا ستلبس !

وكنت غنيا من التعريف طبعا ، فإننى أعلم أنى لا ألبس إلا ما يخلعه أخى . لكن فرحتى بملابسه القديمة لم تكن تقل عن فرحته بالملابس الجديدة على الرغم من حفلة التأنيب التى كان أبى يقيمها لى يوم آخذ الملابس المخلوعة : « لو كنت تستحق جديدا لقدمته لك » .. « إن أخاك يأخذ أجر اجتهاده وذكائه ، وأنت تأخذ ثمن غباوتك وإهمالك » . وقلت له مرة : « أعطنى فرصة واحدة لأكون مثله » . فكانت الفرصة صفعة على خدى واتهاما لى بأننى أكره لأخى الخير .

وسكت القروى الصغير برهة وحملق فى سماء الحجرة ثم تنهد ليكمل حديثه :

ـــ ولما عاد أخى يسخر منى ويبالغ فى زهوه بمنزلته عند أبيه ، ثار الغلّ فى قلبى فقلت له : عندما يعود أبوك من السفر فإننى سأعرف ماذا أقوله عنك ليعرف أنك غير أهل هذا كله .

فأجابنى متحديا :

ـــ ماذا ستقول أيها الكذاب ؟!

فهززت كتفى قائلا فى عدم مبالاة :

ـــ أنت تعرف .. نعم تعرف !!

فقام غاضبا وسحبنى خارج الدكان وأشبعنى ضربا . وتجمع الفلاحون ففضوا الشجار وقال أحد المسنين منهم : « إذن ماذا تفعلون لو

غاب أبوكم إلى الأبد ؟ »

ثم عاد أبى ..

وكنت بعيدا عن الدكان لأمر ما ، لذلك فقد فوجئت بوجوده فيه . ولما ألقيت عليه السلام لم يردّ .. وكان متغير الملامح بشكل بث الرعب فى قلبى ..

وتقدمت منه فسلمت عليه وملت لأقبل يده ، فسحبها منى ولطمنى على وجهى ..

خيّل إلى أننى غريب عنه وأنه ليس أبى . ومن خلال دموعى رأيت بسمة الشماتة على وجه « سعد » . فرفعت صوتى سائلا باحتجاج عن سبب كل هذا ، فما كان من أبى إلّا أن قدم لى القميص الذى كنت أخيطه وبه تلف بالغ صنعته بالطبع يد أخى فى أثناء غيابى ، ولم أنكر أننى أنا الذى قمت بالحياكة لكن غيرى هو الذى قام بالتلف . وسارعت فورا باتهام أخى وبحت لأبى بالسر الذى هددته به ، فقلت له : « إنه يدخن » .

وابتسم « سعد » وابتسم أبى سائلا : لماذا لم تتهمه إلّا الآن ؟! ثم استطرد يقول لى : « لا .. لا تقسم ، فإن كذبة بلا قسم أصدق من صدقك باليمين » .

وعند ذلك عرفت أنه لا وسيلة لإصلاح الواقع .. ففررت .

* * *

وفى الوقت الذى كان الشاب يقص فيه القصة ، كان حزن مشوب بالحنق يحيط بقلب أبيه .. وحزن شديد مشوب بالعجز يحيط بقلب أمه .. وحزن خفيف كأنه على غريم منافس خرج من الميدان يحيط بقلب الأخ .

وسأل الأب فى مناطق قريبة ، ثم قرر عنادا ألا يسأل عنه ، وأن الجوع كفيل بأن يرجعه إليه .

أما الشاب فقد ذهب إلى أحد الخياطين فى المدينة وبدأ يعمل عنده ، وسرعان ما نال الفرصة التى كان محروما منها عند أبيه وظهرت حقيقة موهبته .. ومع الأيام نال ما كان يصبو إليه .

وفى ليالى الأعياد التى يحنّ فيها كل غريب إلى أهله ووطنه ــ كان حنينه إلى القرية .. لا يمكن أن يكون خالصا من هذه الذكريات .

ولما ثبت نجاحه فى المدينة لم يكن من المعقول أن يعود إلى القرية ليعمل خياطا من جديد . بل كان العكس .. فقد بات أخوه يحسده ويحلم باليوم الذى يصبح فيه فى منزلة مثل منزلة أخيه .

وتمر الأيام . وينتقل « سعيد » إلى العاصمة حيث يعمل عند أشهر حائكى الملابس العربية فى حى الأزهر . ويدخل عليه رجل أنيق من رواد المحل فيجاذبه أطراف الحديث ، ويتبين كل منهما أنهما من أهل قرية واحدة . وسأله الرجل فى اهتمام :

ــ ألم تسافر إلى القرية من زمن بعيد ؟

ــ منذ عشرة أعوام وأكثر .

فشهق الرجل مستكثرا .

ــ عشرة أعوام ؟!

ــ نعم .

ــ ولم تر أهلك ؟

فسكت ولم يرد ، فاستطرد الرجل :

ــ لقد رأيتهم أنا فى الشهر الماضى .

— وكيف حالهم ؟

— أحسن ما يمكن عمله أن ترى أباك بنفسك .

ولما انتهى اليوم ورجع « سعيد » إلى مسكنه لم تفارقه ذكرى هذا الحديث . وأطلّ من نافذة حجرته العليا فى حى « القلعة » فرأى أنوار القاهرة تحته ورأى فى السماء من فوقه قمرا ذكّره بالذى رآه ليلة فرّ من دارهم . لكنه فى هذه الوهلة لم يحس إلّا بحنين صاف يشوبه الحب . فقرر أن يسافر إلى أهله .

ولم يكن بينه وبين العيد إلّا بضعة أيام انتظر حتى انقضت ، ثم سافر بغتة . ورأى أثناء عودته الطريق الزراعى الذى حمله إلى الخارج والمصطبة التى نام عليها الخفير ، فخيل إليه أنه يدخل « مدينة مفتوحة » كانت منذ عشرة أعوام مدججة بالسلاح .. أعني ليلة رحيله .. فابتسم .

وكان الوقت ليلا والفصل صيفا وأبواب الدور معظمها مفتوحة . ورائحة الكعك تنبعث من الأفران فيعبق بها الجو .

ووقف « سعيد » على باب الدار وكان مواربا .. وتناهى إليه صوت أمه مرتعشا ضعيفا ولم يسمع صوت أبيه . فلما دخل ألفاه جالسا فى الدهليز فحملق الرجل بعينين ضعيفتين أهلكتهما الإبرة قائلا :

— سعد ؟

— لا يا أبى .. أنا سعيد .

— سعيد ؟.. مستحيل . لكن ..

وأمسك رأسه بكلتا يديه فشم من ملابسه رائحة المدينة ، فأجهش بالبكاء وصار يقول فى صوت عال وحركة غير إرادية :

— نعم سعيد ! سعيد !.. سعيد !.. يا أم سعيد .. تعالى فهذا

ابنك ..

وجاءت من الداخل امرأتان إحداهما عجوز والأخرى صبية . وكانت الأولى هى أمه والثانية زوجة أخيه ..

وعاد من الخارج الابن الأكبر فألفى أخاه فى الدار ، فسلم كلاهما على الآخر ودموع الفرح تغالب عينيهما .. لأن البعد يغسل عن نفوسنا أحقاد المطامع .

ولما انتهت السهرة وانصرف الابن الأكبر، انفرد الوالدان بابنهما الصغير، وقصّ الأب على ولده مرارة العيش التى يلقونها الآن فى القرية. فها هو ذا نصف مكفوف. وقد كثر الخياطون فى القرية، وكان المنافسون الجدد أكثر مهارة من أخيه الكبير كذلك فإن الأحوال قد ساءت.

ثم سكت الأب واستأنف حديثه :

— وها أنت ذا ترانى أعرج .. لقد سقط المقص الكبير بكل ثقله من أعلى منضدة الماكينة على قدمى فترك فيها عرجا خفيفا . وهذا ما لقيته فى عشر سنوات يا بنى !

وكان سعيد يقرر خطة أعلنها قبل عودته إلى المدينة :

— ستكون معى يا أبى أنت وأمى لأننى فى بحبوحة من الرزق . أريد ناسا يشاركوننى فيها فتعالوا لنعيش معا .

فسأل الأب فى خجل :

— حسن .. لكن .. وأخوك ؟!

فهتف سعيد فى عجلة :

— وأخى أيضا .. وهل تضيق علينا المدينة ؟! سأدبّر له عملا .. لكنه سيكون فى بيت مستقل إذا أراد ذلك ..

الفهرس

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٩

الترقيم الدولى : ٩ – ٠٢٨٦ – ١١ – ٩٧٧

المقــدمة

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

« حلم آخر الليل »

بقلم الدكتور : حلمى محمد القاعود

[هذه الدراسة مهداة إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور سعد شلبى ، فقد كان يرحمه الله مهتمًا بها وكان يتمنى أن يراها ويقرأها مع هذه المجموعة ، ولكن قضاء الله سبق ..] .

هذه مجموعة قصصية لم تنشر فى كتاب من قبل للقصصى والروائى الراحل « محمد عبد الحليم عبد الله » ـــ يرحمه الله ـــ وتضاف إلى رصيده الكبير فى أدب القصة والرواية الذى يقارب الثلاثين كتابا .

وقد نشر معظم هذه المجموعة على مدى عقد الخمسينيات ، وأوائل عقد الستينيات ، وبعضها فى أواخر الأربعينيات ، بعدد من الصحف والمجلات أبرزها : المصور ، وروز اليوسف ، والرواية ، والرسالة الجديدة ، والتحرير ، والثورة ، والشعب ، وحواء الجديدة ، ومنبر الإسلام .. وكان الكاتب يرحمه الله ـــ قد بلغ فى تلك المرحلة درجة كبيرة من النضج ، جعلت هذه الدوريات وغيرها تتسابق إلى نشر إنتاجه الأدبى ، وتعنى به وتبرزه من خلال لوحات ورسوم يقوم بها كبار الفنانين الذين يعدّون صفحاتها .

وهذه المجموعة تعيدنا إلى ذلك الفن الجميل الذى نفتقده كثيرًا فى الإنتاج

القصصى المعاصر ، والذى آلى على نفسه ألّا يعبّر ــ غالبا ــ إلّا عن كل ما هو دميم وقبيح ومؤذ للمشاعر الإنسانية ، دون أن يعطينا لمحة من جمال أو لمسة من ذوق تساعدنا على تقبّل الحياة ومواجهتها ، أو الاقتراب من مناطق النور والخضرة والأمل .! إننا للأسف نتعامل مع إنتاج قصصى تكاد مهمته تكون محصورة فى التنفير من الحياة ، وزرع اليأس والإحباط بكل الوسائل الفنيّة الممكنة ، وهذا ــ لعمرى ــ لا يشكّل ــ من وجهة نظرى على الأقل ــ صورة متكاملة للفن الناضج أو الأدب الإنسانى .

أما مجموعة « محمد عبد الحليم عبد الله » ، فإنها تقودنا بيد حانية إلى ذلك العالم الرحب الذى نرى فيه المشاعر الإنسانية متدفقة بالحياة والأمل ، وتتحرك فيه الشخصيات من زاوية الرغبة فى بناء المستقبل ، وليس من زاوية كراهية العالم ومن فيه . إننا بإزاء عالم قصصى يُشيعُ الدفء والحنان والعافية ، وينادى على كل المهمومين والمجروحين والمأزومين : ها هنا الحلم الجميل ، والسلوى الطيبة ، والعزاء الرقيق .. ثم يطلب منهم أن يسارعوا إلى معانقة الحياة والإصرار عليها فى إطار جذاب وشائق وحميم .

إن الكاتب ينطلق فى هذه المجموعة ــ كما فى كل أدبه تقريبا ــ من رغبة قويّة ، فى معانقة الإنسان الذى يتميز بالعاطفة الصادقة والوجدان الصافى والإحساس المرهف ، وهى رغبة يغذّيها حسّه الإسلامى الذى ينحاز للإنسانية ويتعاطف معها ، فى حالات قوتها وضعفها ، وشموخها وانكسارها ، وسموّها وسقوطها .. ويحدب عليها دائمًا باليد الحانية التى تهذب الشراسة ، وتجبر الضعف ، وتواجه الضراوة والغلظة والقهر ، وتحنو على المقهورين والبائسين والمحتاجين ..

وهذه الرغبة التى تنتصر للخير دائمًا ، وتنقب عنه فى كل مكان ، حتى بين الأنقاض التى يخلّفها الشر . نراها متألقة على جبين الشخوص المبثوثة فى ثنايا القصص ، وهى شخوص متنوّعة تتراوح بين الإنسان البسيط والإنسان المثقف .. شخوص تنتظمها صور الطالب والتلميذة ، والمدرس وناظر المدرسة ، والترزى والموظف الصغير ، والفلاح والعامل ، والأرملة والمطلقة ، والعروس فى شهر

العسل والبغىّ رغما عنها ، وسائق التاكسى والخادم ..

والكاتب يقدم هذه الشخصيات من خلال تحليل فنىّ لغوى راق يعتمد الوصول إلى أعماقها النفسية والعاطفية ، فيصوّرها من الداخل تصويرًا ممتعًا ورشيقًا ، بلغة نفتقدها عادة فى هذه الأيام ، ولا يصعب عليه أن يرصد المشاعر الدقيقة لهذه الشخصيات فى حالات مختلفة ، فنراه يقدم لنا مشاعرها حيّة متحركة فى لحظات الفرح والحزن،والميلاد والموت ، والعافية والمرض ، واللقاء والفراق ، والبهجة والكآبة ، والسرور والألم ، والاندماج والوحدة ، والامتلاء والخواء ..

ويصوغ الكاتب هذه الأحاسيس الإنسانية المشبعة بروح إسلامية فى تصوير فنّى رقيق ينتظم قصص المجموعة ، ويجعلنا نتوقف عند بعض النماذج حتى يرى القارئ ملامحها ودلالاتها ، وهى نماذج تنتظم البسطاء من الناس الذين يكوّنون معظم المجتمع ، أو يشكلون طبقته العريضة ؛ هذه الطبقة التى تتعامل مع الحياة بمنهج الفطرة والبساطة ، وتحاول أن تحقق ذاتها أو رغباتها بتلقائية أو عفوية بعيدة عن المكر والخبث والدهاء ، أو التعقيدات التى باتت تشكّل حياة الإنسان فى المجتمعات المتمدينة أو التى أخذت من المدنية قشورها وأمراضها ..

النموذج الأول الذى نختاره من المجموعة هو نموذج المرأة الغيور التى تسعى إلى امتلاك زوجها كله . ويدب الشك إلى نفسها . ويتسرب الخلل إلى نسيج الحياة الزوجية مما يكاد يهددها ويحطمها تماما .. هذا النموذج الحاد العاطفة ، والذى يعبر عن نفسه بحدّة أيضا ، لا يسمح له الكاتب أن يصل إلى غايته بتحطيم الأسرة ، بل يقدم له طوق النجاة ممثلًا فى النموذج المقابل . وقصة « الشيء الممكن » ، تصوّر لنا هذا النموذج المقابل ممثلًا فى الصديقة التى لا تتكلم كثيرًا ، ولا تبدى شيئًا عمّا تعانيه فى حياتها الزوجية ، بل تحاول أن ترى الجانب الطيب فى حياة زوجها أو تخلقه خلْقًا ، لتستعين به على الجوانب الأخرى غير الطيّبة « أحسّت أنها تزوّجت أداة من الأدوات ، نوعًا يكاد يكون خاليًا من العواطف . هو حقيقة ملء بالحياة ، ولكن

إذا كانت الحياة شجيرة ، فإن العواطف أزهارها ، وهى خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا ، وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئًا بكل شىء إلا الأزهار ..

هذا النموذج الذى خلا بيته من كل شىء إلا من الأزهار ــ رمز العواطف واستمرار الحياة فى صورتها الراقية ــ لا يستسلم لليأس أو الإحباط ، وإنما يفزع إلى الصلاة ــ وهو تصوّر إسلامى واقعى ــ والفزع إلى الصلاة ملاذ حقيقى وطبعى ، يسجل به اللائذ خطوة تلقائية فى الاتجاه الصحيح نحو من أعطانا منحة الوجود ، وهو بدوره قادر على إعطائنا منحة الصبر على ما يقلق هذا الوجود ، « كانت تصلى كلما كانت مهمومة خصوصًا فى الليل عندما تتكاثر على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة » ، وكأن الكاتب يشير بذلك إلى الآية الكريمة ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ (البقرة) . إذًا فهذا النموذج المتمسّك بأهداب الإيمان ومواجهة المحنة ؛ يبحث عن المناطق الخضراء ، أو دوائر الضوء فى حياة الأسرة ، فتجد الزوجة الصبور أن زوجها يتميز بقدرته على تحملها وعدم إغضابها ، فتحاول أن تستفزه مرة ومرة ومرة ، وفى كل مرة لا يحاول أن يسىء إليها أو يردّ عليها الاستفزاز كما يُتوقّع ، وعندئذ تدرك أن هذا جانب مضىء وعظيم فى حياة رجلها . « وكانت كلما سجّلت فى إثارته رقما سجل فى الصبر والعفو عنها رقما أعلى ، حتى كان يوم من الأيام فانخرطت فى بكاء شديد بعد إحدى التجارب ، واحتضنته بحنان ، وهى تقول له : أنت لا تدرى أى رجل أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك . فأحست فى روحه بعثًا جديدًا ، ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب » .

إن الكاتب يحرّك شخصياته بمهارة بحيث تمتص كل الصدمات ، وتستوعب كل الأزمات ، وتبدأ فى التغلب عليها ومواصلة الحياة : « ليس فى الموقف شىء خارق للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة

الأولى .. » .

وهذا النموذج لا يختلف كثيرا عن النموذج الذى يقدمه فى قصته « امرأة ومصباح » : فالنموذج هنا مدرّب على العطاء ، والعطاء بلا حدود بالرغم من وجود من « يأخذ » فقط . والمفارقة قد تبدو نوعًا من السلوك الساذج عند من « يعطى » ولا « يأخذ » . ولكن على الحافز على العطاء شيء كبير .. بل أكبر من كل شيء .. إنه الحب الغريزى الذى وضعه الخالق فى قلوب الوالدين للأبناء « فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا وقد يزيد عليه ، ونحن مع ذلك وفى غفلة لذيذة ندفعه مسرورين » .

ويقيم الكاتب مفارقته من خلال أم تسعى لزواج بناتها ، بعد رحيل زوجها ، فتبيع البيت الذى أقامته معه بالعناء والعذاب وشد الحزام المشدود أصلًا — ويتم البيع جزءًا جزءًا ، مع كل زواج يتم بيع جزء . وعندما يتم زواج البنات تستأجر غرفة السطح فى البيت الذى كان ملكا لها ولأولادها ، وتعمل على ماكينة الخياطة لتواصل الحياة .. بينما البنات اللاتى تزوجن يمارسن الحياة وكأن شيئًا لم يحدث .. وها هى أخبار بناتها « زينب » و« فاطمة » و« رقيّة » بعد رحيلها تصنع المفارقة ، وتؤكد على الضريبة التى تستغرق الدخل كله « وقد تزيد عليه » :

« فى بيوت أخرى ، قال محمد لزينب :

— هل اطمأننت على ختان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر .. هذا هو حال الدنيا .. تعالى قريبا منى ..

فالتصقت به فى صمت ..

وقال على لفاطمة :

— هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غليت الطبيخ حتى لا يحمض ؟.. أوه .. ليس فى عينيك بقية للبكاء . تعالى قريبا منى .

فسحبت عليهما الغطاء .

(و)

وقال إسماعيل لرقيّة :

ـــ إن خدّك ملتهب من اللطم . إنها تنام فى قبرها مرتاحة .. فقد اطمأنت على مصير البنات .. أوه .. خدّك ملتهب جدا .

وحين مرّت أنامله على خدّها أحسّت بنعومة المرهم ..

وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغرقات تماما .. » .

لقد ضحت « الأم » بكل شيء من أجل بناتها وسعادتهن ولم تعبأ بكلام الناس وتعليقهم على تصرفها ببيع البيت وإنفاق ثمنه على زواجهن ، والعيش فى غرفة السطوح « وتهامس أهل الحىّ بأمر هذه الأم ، وقال ناس إنها محقة . وقال ناس بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذى خلّفهُ سيؤول إلى هذا المآل ما بذل فيه حبّة عرق .. » ولكنها كأم وجدت فلسفة لهذا العطاء الكبير ، أو وجدت المبرّر الإنسانى المجرد الذى يعلو على كل المقاييس المادية المجردّة « ثم بدأت تشعر بشىء يخوفها . كأن حادثًا كبيرًا سيدق عليها باب الغرفة الذى يهزّه فى الليل هواء الشتاء ، وقالت فى نفسها ، هلْ سيموت زوجى مرة أخرى ؟

واستغرقها بعد ذلك فكر لذيذ :

ـــ آه .. « زينب » فى حضن « محمد » . و« فاطمة » فى حضن « على » . وأخيرًا .. « رقية » فى حضن « إسماعيل » .. كل بنت تحت جناح رجل . هل فى الدنيا أعزّ من هذا ؟ » .

هذا التبرير الذى تقدمه الأم لتضحيتها تبدو أهميته وعظمته ـــ وربما سذاجته ـــ من خلال ذلك الصراع الرخيص بين البنات على ماكينة الخياطة التى تركتها الأم ، وهو صراع لا يعبأ بشىء ، ولا يضع فى اعتباره تضحيات الأم العظيمة .. بل يبدو قائمًا على الجحود والعقوق .. ويا للسخرية حين نراه يتلفع بعباءة الشرع الكريم .

« .. والتقت النظرات أخيرًا على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهما :

ـــ هل جئتما من أجل ذلك ؟

فقالت أختاها :

ـــ حتى أنت .. هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم !! » .

إن الكاتب يجعلنا نتعاطف مع هذه المرأة ، ونقدر عطاءها ، ونحترم عاطفتها وغريزة الأمومة التى جعلتها تكافح حتى تموت منكفئة على ماكينة الخياطة بينما مصباح الغاز يلفظ أنفاسه الأخيرة ، من أجل سعادة بناتها ..

ونعثر على نموذج مشابه يقدمه الكاتب فى قصة « بقية العمر » . إنه نموذج المرأة التى تكافح من أجل أسرة ما زال ربّها على قيد الحياة ، ويتمتع بالصحة والعافية والحرفة ، ويمثّل النموذج السلبى الذى يجيد الكسل والهروب من الحياة والغرق فى بحار الوهم والخيال .. ولسبب ما لا أدريه جعل الكاتب معظم نماذجه المكافحة ، والمقاومة لمتاعب الحياة من « النساء » ، ليس فى هذه المجموعة فحسب ، بل فى مجموعات وروايات أخرى .. لعله أراد أن يبين أن الإنسان مهما كان ضعيفًا (والمرأة أبرز النماذج التى يظهر من خلالها الضعف) يستطيع أن يواجه الحياة بشجاعة ورزانة وصبر ، ثم يمكنه أن ينتصر فى النهاية أيًّا كان هذا الانتصار .. ولو بالسعادة التى تنتقل عدواها من سعادة الآخرين الذين يحبهم ويعمل من أجلهم .

فى قصة « بقية العمر » نجد زوجة عم « زكى » ـــ المنجّد ـــ مثالًا للمرأة التى يبتليها القدر بزوج مهمل ، يحلم أكثر مما يعمل ، ويطلب منها ما لا تملك ، وهى مرغمة فى الوقت ذاته على تسيير دفة الحياة الأسرية « وكانت فى الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت فى بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تلفة العدّة » ، وكانت تدير البيت « بطريقة سحرية ، تقترض ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد ، وتطهو أخسّ أنواع الأطعمة بطريقة من يحمّر خروفًا ، وتبتسم فى قلبها جروح .. وكانت تقول لأمى عندما يفيض بها الغمّ : إنه لا أمل .. لا أمل إلا فى شىء من شيئين : فإنا أن تموت

فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلًا من غير طراز أبيه » .

هذه الزوجة الأم تواصل مسيرتها وكفاحها حتى تلقى وجه ربها ، ويبقى زوجها كما هو ، بكسله ، ولا مبالاته ، وأحلامه ، ولا بأس أن ننقل تصوير الكاتب لشخصيته : « كان كسولًا ثرثارًا مهملًا أكولا ، من نوع الرجال الذين يستطيع الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التى يقدّمها لزوجته ، والنقود الأقل التى يمدّ صلاح ابنه بها البيت ، كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخّن ويهمل ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية من أيام العز .. أيام كان للمنجّد عز الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيامٍ بلياليها .. أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تنهداتها عن الحاضرين .. » .

لا شك أن « محمد عبد الحليم عبد الله » أراد أن يرفع من قيمة النموذج العامل ، ويسخر من النموذج العاطل ، وقد استعان على ذلك بتصوير حيّ يعتمد على الروح الشعبى الذى ينحت معجمًا خاصًّا دلالته فى الوجدان الاجتماعى « أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة » ، ولكنه يتقدم خطوة وأخرى فى تصوير النموذج العاطل ، الذى يأخذ دون أن يعطى ، يحدثنا فى ختام القصة عن نوع الوظيفة التى يطمح إليها عم زكى بعد أن ماتت زوجته :

« .. وحرّكنى فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع وظيفة تصلح لعم زكى ويصلح لها عم زكى . فسألته ، فقال ببساطة من يوضح أمرًا واضحًا :

ـــ خفير !

قلت مستغربًا :

ـــ خفير ؟.. خفير على ماذا ؟

ـــ خفير مراحيض ..

فقلت فى نفسى وأنا أهبط السلم وأدور مع انحناءاته فى ظلمة النهار :

ـــ وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه المهمّة .. »

وواضح أن عنصر السخرية هنا ـــ وهي سخرية راقية إن صح التعبير ـــ يلعب دورًا كبيرًا في تصوير شخصية عم زكي النموذج السلبي المقابل للعنصر الإيجابي الذي تمثله زوجته .

وهكذا ينهج الكاتب في تقديم نماذجه التي تتضمنها قصصه ، فنراها في العادة شخصيات قادرة على العطاء بالرغم من كل الصعوبات التي تواجهها في مقابل شخصيات مستعدة أو متحفزة للأخذ دائمًا ، ومبررات العطاء عنده بسيطة وسهلة .. إنها نفسها مبررات الحياة .. الحياة الإنسانية التي يشعر فيها صاحبها بطعم الحياة الحقيقي ، ولهذه الحياة الإنسانية ملامحها وسماتها التي تتمثل في حركة العواطف واختلاجها داخل الصدور وخفقانها بالحب والأمل ، والعطاء والسموّ .. وكثيرًا ما نعثر على نماذج تضحي بكل شيء من أجل هذا الخفقان الذي لا يعرفه من يكتفون من الحياة الإنسانية بجانبها « البيولوجي » فقط . إن هذه النماذج مبثوثة في معظم القصص « انظر مثلا : اقتلوني بسيف الحب ـــ أملان يتحققان ـــ حلم آخر الليل ـــ جددنا المواعيد ـــ السلوى ..) .

وأعتقد أن هذا الاتجاه الإنساني المتوهج الذي يلحّ عليه « محمد عبد الحليم عبد الله » هو الذي يجعل لقصصه قيمة مستمرة ، بحيث تجد فيها الأجيال المتتابعة ، ما يشبع وجدانها المتلهف لقطرة ضوء وخفقة أمل ولحظة صفاء ، ويُساعد على تجاوز الصعاب وتحقيق الغايات .

وقد اختار الكاتب لهذه النماذج إطارًا فنّيًا يقربنا إليها أو يقربها إلينا ، هذا الإطار هو القص بضمير الغائب غالبا ، وضمير المتكلم أحيانا ، ومن خلال الالتفات يعتمد على أسلوب فيه مودّة وألفة.. صديق يحكي لصديق . وهذه ميزة يفتقر إليها معظم إنتاجنا القصصي المعاصر الذي يجعلنا نشعر تجاهه بشيء من الغربة أو النفور ، بسبب استعلاء الكاتب ، أو محاولته أن يكون أستاذًا . العكس عند « محمد عبد الحليم عبد

الله » ، وهو يقدم نماذجه . تستشعر أن بينك وبينه ودّ قديم ، وسابق معرفة ، ولهذا يتسلّل إلى نفسك فى نعومة وسهولة لا تحسّ معهما أنه سيعطيك درسًا فى مقاومة الحياة أو مواجهتها ، أو يدعوك للسخط عليها وعلى من فيها .. ولكن قربه منك يجعلك تلقى إليه بكل نفسك وسمعك وبصرك وعقلك ، وتتابعه بشغف وتلهف ، ورضا .. ولهذا تستجيب له ، وتتفاعل مع جميع شخصياته ، حتى الشخصيات الزائدة عن الحاجة ، بل ومع القصص الخارجية التى يتخذ منها مدخلًا أو مقدمة للقصة الأصلية أو الموضوع الأساسى الذى يريد أن يحكى لك عنه .. صحيح أنه يتكئ على الحادثة أو الشخصية ليقدم قصته القصيرة . ولكن اهتمامه الكبير « بالرواية » التى برع فيها وصار من أبرز بُنّاتها المحدثين ، جعله ينسى أحيانا أنه يكتب قصة قصيرة مكثفة الحوادث والشخصيات ، فيقدم لنا مشروع رواية حيث تتعدد فيه الشخصيات والحوادث ، أو يقدم قصة من داخل قصة ، أو يمدّد زمن القصة بحيث يطول طولًا زائد على الحد المتعارف عليه فى القصة القصيرة ..

إننا لو نظرنا مثلًا إلى قصة « اقتلونى بسيف الحب » سنجد الفترة الزمنية تطول إلى مدى لا تحتمله إلا رواية . وكذلك قصة « أملان يتحققان » ، أما فى قصة « بقية العمر » التى أشرنا إليها فهى تحفل بأكثر من قصة هامشية ترتبط بالقصة الأساس ، ولكن فى إطار زمنى مطوّل .. ولعل القصة التى تجاوزت هذا المأزق ، قصة « السلوى » ، وإن كان الكاتب قد صاغها ببراعة فيما يشبه المفارقة أو التوازى بين قصة السائق وخطيبته ، وقصة الرجل والمرأة اللذين ركبا التاكسى ثم شاهدا الفيلم، وقصة الفيلم ذاته التى تدور بين امرأة وحبيبها وهما فى مرحلة الفراق .. ومثل قصة « السلوى » قصة « جددنا المواعيد » و« يريد أن ينساها » و« اليوم الموعود » ،فقد راعت التكثيف والتركيز فى الحوادث والشخصيات إلى حد كبير .

وكما قلت منذ قليل ؛ فإن المودة التى يزرعها الكاتب فى نفس قارئه تجعله يتجاوز هذه السلبيات فى البناء القصصى ، ويغفر له أنه من البناة الذين أصّلوا لفن القصة

والرواية فى أدبنا الحديث ..

ويبقى أن نشير إلى ظاهرة من أهم الظواهر الفنية التى تميز بها أدب « محمد عبد الحليم عبد الله » ، وهى أسلوبه المضىء الذى يحقق معادلة من أهم المعادلات المفقودة لدى الكثيرين ، بعد أن ابتليت الحياة الثقافية بكتّاب لا يفقهون أوليات التعبير الأدبى ، ويكتفون بالثرثرة عن بعض النظريات الأدبية التى لا تحقق تقدمًا أدبيًا يذكر . هذه المعادلة هى التعبير الأدبى المتميز من خلال أسلوب راق فى عفوية وتلقائية . ويمكن أن نعتبر « محمد عبد الحليم عبد الله » تلميذًا من أهم تلاميذ « مدرسة البيان فى النثر الحديث » بعد جيل الروّاد ، بل نعتبره الصورة المطوّرة والمتقدمة لأسلوب واحد من الروّاد بعينه هو « مصطفى لطفى المنفلوطى » .

إنّ محمد عبد الحليم عبد الله فى أسلوبه القصصى هنا ، وفى كتبه الأخرى يحتفى بالأسلوب احتفاءً كبيرا ، ويقدم لنا لوحات رائعة ، يظهر فيها الأسلوب المطبوع الذى يحقق تناسبًا وتناسقًا وتناغمًا ، دون أن نشعر فيه بأثر للافتعال أو التكلف . إنه الأسلوب الذى يضم جناحيه على المعنى الجميل والأداء المتألق ، ويخلّف لنا المتعة والإحساس بجودة الفنّ وجماله . ولنقرأ هذه اللوحة من قصة « الشىء الممكن » وهى تصوّر كيف تغلّبت « سعاد » على إحساسها بالفشل فى حياتها الزوجية :

وفى إحدى الليالى حاولت أن تتجه إلى الله فى صلاتها بمشاعرها كلها . أحست أنها تريد أن تكلم أحدًا وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة آلية بدأت صلاتها . ورويدًا رويدًا زالت الآلية عن الصلاة وحل محلها اندماج وخشوع وشىء يكاد يكون اتحادًا . فلما فرغت رأت دموعًا على خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التى تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصبر من يتكلف الصبر ، ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويبكى من يتكلف البكاء .. وقد يحب من يتكلف الحب .. هل تسمعيننى يا أحلام ؟

ــ نعم أسمع ..

ــ ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث فى زوجها عن نقطة تبدأ منها عملية « الحب » ، فوجدت فيه شيئًا جديرًا بالحب . هو أنه رجل صبور شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلتْ ؟

صارتْ تتعمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تتجه إلى قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحبّ هذا أيها الجاحد ؟ » .. إلخ .

هنا أسلوب بسيط وسهل ، ولكنه ممتنع كما يقول البلاغيون والنقاد ، لا يصل إليه إلا الأديب الموهوب الذى يملك ثروة أدبية ضخمة تجعله يصدر عن طبع ، ويصوّر عن فطرة ، وها هو يرسم حال الزوجة البائسة الوحيدة فى سعيها إلى من يشاركها همومها ، واندماجها فى الصلاة ــ بعد أن كانت تؤديها بآلية ــ ثم تعرّفها على الطريق الصحيح إلى حلّ مشكلتها .. وهو أسلوب متميز بلا شك ، لا أثر فيه للكليشهات المحفوظة عن السابقين ، ولكنه مستقل بذاته وبصوره وتشبيهاته . وانظر إلى تصويره لعملية تحريك المشاعر كما يتحرك « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام ، تجد تعبيرًا يستحق أن ينسب إلى محمد عبد الحليم عبد الله ؛ بالرغم من بساطته ويسره وقربه إلى كل الناس .

وفى هذا الأسلوب خاصية أخرى تحتاج إلى وقفة طويلة ليس هنا مجالها ، ولكننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض نماذجها وملامحها .. هذه الخاصية هى ما يمكن تسميته بفن «استخلاص الحكمة» أو فن «صنع الحكمة» عبر السياق السردى أو الحوارى الذى يجرى فى القصة . فقد ينثر الكاتب فى ثنايا قصته أو روايته حكمة هنا ، أو قولًا مأثورًا هنالك ، وتبدو الحكمة أو القول المأثور بمعزل عن السياق ، ويمكن بترها دون أن يتأثر النصّ ، ولكن الأمر هنا يختلف تماما ، فالكاتب يجعل من الحكمة أو القول المأثور جزءًا من النسيج القصصى لأنه يستنتجه من خلال الموقف القصصى ، فيعطى مذاقًا خاصًا ومتميزًا له دلالته ، وديمومته أيضًا . ويستعين الكاتب فى ذلك

بكل عناصر البيان والبديع المتاحة ، التى تجلو الحكمة المستخلصة فى قالب أنيق وجميل . يقول فى قصة « حلم آخر الليل » : « فى حياتنا مناطق يجب أن تبقى فى ظلام . والويل كل الويل لمن يسلط عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعًا من الخارج يضيئها على الرغم منه .. » ويقول فيها أيضا : « إن أخطاءنا هى أكثر الحقائق فاعلية فى حياتنا . أما الصواب فإننا ننعم بثمراته فتلهينا ثمراته عنه .. » .

وفى قصة « اليوم الموعود » يقول : « لكن الحقيقة فى موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظلّلته الثقة »أو يقول : « والسؤال المؤلم يؤلم ، ولو كان صادرًا عن سذاجة أو حسن نيّة » .

وفى قصة « اقتلونى بسيف الحب » نقرأ قوله : « أعطيته ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان فى كأس من الاحتيال ، أو قوله « عجيب أن نحبّ فنسعد ، وأن نحبّ فنموت » أو قوله : « شاخ الحذر فى عينيها لكنه بقى حيًّا » .

وفى قصة « امرأة ومصباح » يقول : « فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كلّه ، وقد يزيد عليه ، ونحن مع ذلك ، وفى غفلة لذيذة نذوقه مسرورين » أو يقول : « والخبز مُشْبع جدًا لمن يغمسه فى القناعة » .

وفى قصته « الشيء الممكن » يتحدث عن الفراق فيقول : « وفى اللحظة الأولى التى يبدأ فيها فراق الأصدقاء يسأل كل نفسه ، ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلّب على الزمن وصنع النسيان ؟ وتبدو المشكلة فى الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد والتعويض تقهر كل شيء وتضمن لحياتنا الاستمرار » ..

إن القارئ يعثر على نماذج وعينات كثيرة لاستخلاص الحكمة أو الحكمة المستخلصة تصنعها المواقف القصصية، ويصعب أن نبترها عن السياق لأنها جزء منه ومرتبطة به، ومع ذلك، فإننا نستطيع أن نستفيد بها كصورة تعبيرية مستقلة تحمل لنا تعبيرًا حكيمًا يظل معنا إلى أمد بعيد .

وبعد ..

فإن هذه المجموعة « حلم آخر الليل » بقايا عطر من مؤلفها الراحل « محمد عبد الحليم عبد الله » وهى تعيدنا مرة أخرى إلى عصر القراءة الجميل الذى غاب عنا طويلًا ، وتجعلنا نعيش فى واقع قصصى مفعم بالحياة الإنسانية ، ويقوم على أسس فنيّة لا يقدر عليها إلا واحد من أعمدة الأدب القصصى والروائى فى عصرنا الحديث هو : محمد عبد الحليم عبد الله ؟

أبو المجد بحيرة : ١٥ من جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ
١٤ من فبراير ١٩٨٧ م

حلمى محمد القاعود